الباب الخامس

في

ديرة السبع على ممر الأحقاب

الفصل الأول:	في الكنعانيين
الفصل الثاني:	في العموريين
الفصل الثالث:	في الفلسطينيين
الفصل الرابع:	في المصريين
الفصل الخامس:	في ملوك الرعاة
الفصل السادس:	في بني إسرائيل
الفصل السابع:	في الأشوريين
الفصل الثامن:	في الأثيوبيين
الفصل التاسع:	في البابليين
الفصل العاشر:	في الأدوميين
الفصل الحادي عشر:	في الأنباط
الفصل الثاني عشر:	في الفرس
الفصل الثالث عشر:	في اليونان
الفصل الرابع عشر:	في الرومان والبيزنطيين
الفصل الخامس عشر:	في العرب
الفصل السادس عشر:	في الصليبيين
الفصل السابع عشر:	في الأتراك
الفصل الثامن عشر:	في الإنكليز

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول
في
الكنعانيين

١- الآن وقد انتهينا من بحث كل ما اتصل بنا من روايات وأخبار وطلول وآثار ووقائع وحروب تتصل بتاريخ هذه البلاد- نود أن نذكر لك أسماء الأمم التي كان لها شأن فيها، والشعوب التي نزلتها، سواء كان ذلك بقصد العيش والاستيطان فيها، أو بقصد الفتح والإغارة على الأمصار المجاورة إليها؛ مع ذكر شيء من الوقائع التي كان لها مساس، قل أو كثر بمصير هذه البلاد.

وقد أحببنا أن نفتتح هذا الباب بذكر الكنعانيين، لا لأنهم أول قوم استوطنوا هذه الديار -إذ إنا لا نجزم ولا نظن أن في مقدور أحد أن يجزم في صحة ذلك- بل لأنهم، على ما نعلم أول قوم جرى لهم ذكر فيها.

٢- يظن الأستاذ جورج أدم سمث G.A.Smith[1] أن أول هجرة سامية لأرض كنعان حدثت حوالي سنة ٢٥٠٠ ق.م، مع أنه هو نفسه قال في موضع آخر: إن العائلة السادسة احتلت أرض كنعان.

فإذا صح قوله الثاني يكون التاريخ الذي ذكره مغلوطًا، لأن السير فلندرس بتري (Sir Flinders Petrie) يقول: إن العائلة السادسة حكمت مصر من ٣٣٣٠- ٣١٣٣ ق.م.

٣- ليس الكنعانيون بأول قوم استوطنوا هذه البلاد؛ ولكنهم على ما نعلم، أول قوم جرى لهم ذكر فيها. فإذا ما تتبع المرء تاريخ مصر القديم عثر على أنباء

---

(١) أنه مؤلف كتاب Atlas of the Historical Geography of the Holy Land.

اصطدامهم ووجودهم في هذه البلاد بين عهدي العائلتين الرابعة والسادسة، ووقوفهم حجر عثرة في وجوه المصريين كلما اجتاز هؤلاء أرض كنعان.

وقد كانوا من الجرأة بدرجة أن ثاروا على رعمسيس الثاني المشهور باسم «سيزو ستريس» أو «رعمسيس الأكبر» وهو أعظم من ملَك مصر بالحكمة والبطش مدة طويلة.

٤- يجتزم صديقي البحاثة الأمريكي المستر جون وايتنغ (J.Whiting) أن الكثيرين من أهل فلسطين منحدرون من أصل كنعاني قديم.

٥- وللكنعانيين حوادث جمة مع بني إسرائيل، ذكرت بالتفصيل في أسفار العهد القديم فليرجع إليها من شاء.

٦- لست أدري: كيف ولماذا أراني أميل إلى الاعتقاد أنه لا بد من وجود صلة دم بين الكنعانيين القدماء وبين فريق من عرب الجبارات الحاليين المعروف عنهم أنهم أقدم من استوطن هذه البلاد من الأقوام.

ولو سئلت البرهان لما استطعت إلى ذلك سبيلا، بيد أني أود أن أضع هذه العقيدة التي قد تكون وهمًا أمام الباحثين الذين يسعدهم الحظ بوقت أكثر من وقتي، ووسائل أيسر من وسائلي لعلهم يهتدون إلى معرفة الحقيقة؛ والله أعلم بالصواب.

الفصل الثاني
في
العموريين

١- من الأمم التي عاشت في ديرة السبع في الأزمنة الغابرة وكان لها ذكر جليل فيها «العموريون».

فقد كان لهؤلاء في فلسطين خمس مدن كبرى[١]، وقد شمل سلطانهم تل الملح وتل عراد والبحر الميت واتسع حتى شمل جزءًا كبيرًا من شرقي الأردن.

٢- يقول السير فلندرس بتري أنهم استولوا على مصر في عهد مرن رع ٣٢٣٥ ق.م من فراعنة مصر.

٣- لقد كان العموريون من ألد أعداء بني إسرائيل، وليس لهذا العداء من سبب سوى أن هؤلاء أرادوا أن يخرجوهم من أوطانهم، وقد اتحدت مدنهم الخمسة المتقدمة ذكرها، وحاربت بني إسرائيل زمنًا طويلا.

---

(١) هي أورشليم «القدس» وحبرون «الخليل» ولاخيش «تل الحسى أو تل دوير» وعجلون «خربة عجلان» ويرموث «عراق المنشية».

obeikandl.com

الفصل الثالث

في

الفلسطينيين

اختلف في تعيين أصلهم:

فمن قائل: إنهم أتوا من شمال سوريا؛ ومن قائل: إنهم من جزيرة «كريت» أتوا إلى فلسطين عن طريق آسيا الصغرى أو عن طريق مصر عندما قاتلهم رعمسيس وقهرهم وأسكنهم الساحل ما بين يافا وغزة؛ ومن قائل: إنهم ساميون وأن الساميين جاءوا من الحبشة، وعبروا على جزيرة العرب من باب المندب، فنزلوا اليمن، وهناك تكاثروا وانتشروا إلى الحجاز ونجد والبحرين ثم نزحت طائفة منهم إلى فلسطين وفيها فلسطينيون القدماء.

ومن المدن التي شادوها غزة وأسدود وعسقلان وعاقر وغير ذلك. وعلى قول: إن عراق المنشية الحالي من مدنهم.

ولكنك إذا رجعت إلى ما كتبناه عن «تل جمة» وعن عاصمتهم «جرار» علمت أن سلطانهم كان ممتدًا إلى أبعد من ذلك؛ فقد احتلوا جميع السهول الممتدة من شمال يافا حتى رفح وسينا الشمالية.

٢- لقد جاء في كتاب «تاريخ فلسطين» لمؤلفيه عمر الصالح البرغوثي وخليل طوطح: إن الفلسطينيين دخلوا البلاد واستولوا على قسميها الغربي والجنوبي بعد مجيء اليهود بستين سنة.

وعندي أن هذه الرواية لا تأتلف مع رواية التوراة القائلة: إن سيدنا إبراهيم عندما نزل «بئر السبع» وحفر بئره فيها اصطدم مع الفلسطينيين من أجل تلك البئر،

ومن هذا يفهم أن الفلسطينيين كانوا هنا قبل بني إسرائيل، وهناك من يعتقد أن الفلسطينيين ظهروا في عهد رعمسيس الثاني ١٣٤٠ ق.م.

٣- حاربوا بني إسرائيل زمنًا طويلا[١]، وكانت الحرب سجالا بينهم، وقد كانوا في أيام السلم يصنعون الأسلحة والمحاريث وما إلى ذلك من الآلات، فيأتي بنو إسرائيل ويشترونها منهم.

٤- ومن الأمم التي جاورت الفلسطينيين الآدوميون، وبنو كلاب في الشرق؛ وبنو جرم، والعمالقة في الشرق للجنوب.

وقد كانت البلاد التي تؤلف ديرة السبع في الوقت الحاضر في حالة مد وجزر بين هذه الأمم، وظلت كذلك حينًا من الدهر.

٥- عثر المنقبون على جور كبيرة محفورة في الأرض في تل جمة وما حولها من الأراضي، قالوا: إنها حفرت في زمن الفلسطينيين لأجل خزن الحبوب وشحنها إلى كريت عند اللزوم.

ويفهم من هذا أن السهل الواقع في غرب بئر السبع والذي يمتد حتى البحر المتوسط كان مزروعًا، وأن الزراعة فيه كانت خصبة للغاية.

٦- امتزج الفلسطينيون بغيرهم من الأمم، فانقرضت فئة كبيرة منهم، وتحولت فئة أخرى إلى أجناسَ وعناصر أخرى، لا نشك قط بأن قسمًا كبيرًا من سكان بئر السبع متحدر من تلك الفئة.

ومن الدلائل التي تبعث على هذا الاعتقاد أن هنالك خربة تدعى «جرار»[٢]

---

(١) كان بنو إسرائيل آنئذ في القسم الجبلي، والفلسطينيون في السهل.

(٢) راجع ما كتبناه عن «تل جمة» في غير هذا المكان.

وهي واقعة بالقرب من جرار القديمة عاصمة الفلسطينيين حيث تقيم الآن عشيرة بدوية من عشائر الترابين تدعى الحسّنات، وأن فريقًا من هذه العشيرة يكنى «بأبي معيلق»، ووجه الشبه ظاهر بين «أبي معيلق» و«أبيمالك» ملك الفلسطينيين المتقدم ذكره، كما أن قرب الشقة بين «أم جرار» الحالية و«جرار» القديمة مسألة تستلفت النظر.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الرابع
في
المصريين

رأينا أن ندون هنا أسماء ملوك مصر وخلاصة الوقائع التي كانت لها صلة بها في هذه البلاد:

رقم متسلسل	رقم الأسرة	اسم الملك	التاريخ	مطالعات ونبذ عن الوقائع التي لها صلة بهذه البلاد
١	٦	مرين رع	٣٢٣٥ ق.م	فتح هذا الشام، ويقول العالم السير فلندرس بتري: إن العموريين استولوا على مصر في زمنه.
٢	١٢	أمينمحات الأول	٢٥٨٤	هنالك قصة يروونها عن ابنه «سانيحات» وهي أنه هرب إلى سوريا، واجتاز أثناء هربه البادية، وأشرف على الهلاك من شدة العطش لولا أن بدويا رآه فأنقذه؛ وأخذ ينتقل من عشيرة إلى أخرى، حتى وصل إلى «قدم» في الجبال، فتعرف إلى أميرها وتزوج من ابنته الكبرى. فصار له أولاد وصار كل واحد من أولاده شيخًا على عشيرة؛ ثم اشتاق إلى بلاده، ورجع إليها.

رقم متسلسل	الأسرة الثانية	اسم الملك	التاريخ	مطالعات ونبذ عن الوقائع التي لها صلة بهذه البلاد
٣	١٢	سنوسرت الثالث	٢٤٦٥	غزا المصريون جنوب سوريا، ولكن يظهر أنهم ما جاءوا في هذا التاريخ للفتح والاستيلاء، بل للغزو والنهب.
٤	١٨	أحمس	١٥٧٣	هذا هو القائد الذي غلب «الملوك الرعاة» وهو الذي أسس الأسرة الثامنة عشر، وقد ظل مقتفيًا أثر الهكسوس حتى حط وقومه رحالهم أمام «شاروحين» الواقعة على الحد الجنوبي من فلسطين، ثم استولوا عليها، وبعد أن تغلغل في صميم البلاد رجع إلى مصر، وهناك من يقول: إن شاروحين هذه هي تل الشريعة.
٥	١٨	تحتمس الأول	١٥٣٩	احتل المنطقة الجبلية من فلسطين، وسار بفتوحات حتى الفرات بالقرب من حلب.
٦	١٨	تحتمس الثاني	١٥١٤	أخضع سوريا برمتها شمالها وجنوبها، وجاء في مذكرات أحد رجاله أنه أتى من بلاد الشاسو «البدو» بعدد كبير من الأسرى.

رقم تسلسلي	الأسرة	اسم الملك	التاريخ	مطالعات ونبذ عن الوقائع التي لها صلة بهذه البلاد
٧	١٨	تحتمس الثالث	١٥٠١	في زمنه قامت ثورات في سوريا، فساق عليها جيشه، وهبط غزة بعد أن قطع مائة وستين ميلا من البادية في اثني عشر يوما ثم سار نحو الشمال، وقد أعاد الكرة على سوريا وحاربها مرارًا. وفي مذكرات «أمنحب» أحد رجاله أنه استولى على منطقة النقب وأسر عددًا من سكانها.
٨	١٨	أمنحتب الثاني	١٤٤٩	استأنف حملة أبيه، وكانت له جولات في سوريا قصد منها جس النبض ودرس مبلغ سطوة مصر في تلك الديار. وقد وجدوا له آثارًا في سوريا وفي «تل الحسى».
٩	١٨	تحتمس الرابع	١٤٢٣	أغار على سوريا.
١٠	١٨	أمنحتب الثالث	١٤١٣	بين البلاد التي افتتحها والأمم التي أخضعها كان للشاسو «البدو» ذكر كثير في منطقة البحر الأحمر. وقد امتد سلطانه من مصر حتى سوريا الشمالية ومن الحبشة حتى ما بين النهرين.

رقم متسلسل	الأسرة	اسم الملك	التاريخ	مطالعات ونبذ عن الوقائع التي لها صلة بهذه البلاد
١١	١٨	توت عنخ آمون	١٣٥١	عثر المنقبون على آثار استدلوا منها أن سوريا كانت تدفع الجزية لمصر في عهده.
١٢	١٩	سيتي الأول	١٣١٧	طارد قبائل الشاسو وأبعدهم عن «زالو» الواقعة على تخوم مصر إلى أرض كنعان ثم غزا جنوب فلسطين، وظل يكتسح البلاد حتى وصل أقاصي سوريا الشمالية. ومما يلفت النظر بحث ستي عن المياه وسبره غور البادية، وإنشاؤه الصهاريج والقساطل في رحلاته، ومن البلاد التي ذكرها في فتوحاته Alsoa «الخلصة».
١٣	١٩	رعمسيس الثاني	١٢٩٥	هذا أيضًا غزا سوريا وحارب الحيثيين والكنعانيين الذين ثاروا عليه. وذكر الشاسو في الجنوب أثناء ذلك، ثم حالف بعدئذ الحيثيين، ومن جملة شروط الحلف أن يساعد كل من الفريقين الآخر إذا ما أراد أن يؤدب العشائر النازلة على الحدود.

رقم متسلسل	الأسرة الحاكمة	اسم الملك	التاريخ	مطالعات ونبذ عن الوقائع التي لها صلة بهذه البلاد
١٤	١٩	مرن-بتاح	١٢٢٩	استولى على كنعان، وهناك أغنية مصرية تذكر الظفر الذي ناله هذا في «غزة وعسقلان» من أراضي كنعان. ولقد ذكر أحد ضباط الحدود في تقريره أنه أتى بقبيلة من الشاسو من أدوميا ليعيشوا ويعيشوا حيواناتهم.
١٥	٢٠	رعمسيس الثالث	١١٩٥	تحالف سكان هذه البلاد من عموريين وفلسطينيين ضد السلطة المصرية، فأخضعهم هذا. وقد عثروا على آثار كتابة له قال فيها (هاجمت «سآرو» أي جنوب فلسطين، وأنزلت بلائي على عشائر الشاسو القاطنة فيها، وأخربت قراهم، وأهلكت رجالهم وأموالهم حتى الأبقار، وأسرتهم، ثم أجبرتهم على دفع الجزية إلى مصر، وقدمتهم إلى الآلهة كعبيد في المعابد).
١٦	٢٢	شيشنق الأول	٩٤٠	هو «شيشاق» الوارد ذكره في التوراة «سفر الملوك الأول» وهو سامي الأصل ويقال: إنه ابن النمرود. غزا فلسطين ونهب الهيكل الذي بناه سليمان الحكيم، وأخضع بني إسرائيل من غير قتال ومن جملتهم الملك رحبعام بن الملك سليمان.

رقم تسلسل	الأسرة	اسم الملك	التاريخ	مطالعات ونبذ عن الوقائع التي لها صلة بهذه البلاد
١٧	٢٢	أوزرقون الأول	٩١٩	نهب المدن التي حول «جرار» وهدمها وجعل بعض هذه المدن حدًّا لمصر. وقد أم اليهود مصر في عهده.
١٨	٢٦	بسامتيك الأول	٦٦٤	استولى على فلسطين وأخذ «اشدود» من الكنعانيين. واتخذت غزة حدًّا لمصر في زمنه.
١٩	٢٦	نخاو الثاني	٦١٠	قام بغزوة كبيرة على سوريا، وافتتح عددًا كبيرًا من بلاد فلسطين. ذكر في سفر الملوك الثاني الإصحاح ٢٣ (٢٩): وقد تغلب على بني إسرائيل، وأقال ملِكهم، وأجلس مكانه أخاه «يوحوا كيم». ولكنه اندحر بعد ذلك أمام ملك بابل «نبوخذرزر» فرجع إلى مصر.

الفصل الخامس
في
ملوك الرعاة

١- هم الملوك الذين كان مؤرخو اليونان يسمونهم «هيكسوس»[١]، والعرب الأقدمون يقولون: إنهم هم «العمالقة» أو «العرب البائدة».

ويقول يوسيفوس: إن معنى كلمة «هيكسوس» الملوك الرعاة؛ لأنها مؤلفة من «هيك» ومعناها الملك، و«سوس» ومعناها الراعي.

وأما بروكش فيقول: إنها مؤلفة من «هيك» ومعناها الملك، و«شاسو» ومعناها البادية أو البدو.

وهؤلاء المؤرخون كلهم اتفقوا على أن «العمالقة» عرب، وأنهم هم «الشاسو» الذين جاء ذكرهم في تاريخ مصر القديم.

٢- كان الشاسو يتنقلون في بادية مصر الشرقية بين النيل والبحر الأحمر كما يتنقل البدو فيها هذه الأيام، ولم يكونوا ليقتصروا على تلك الصحراء، بل كانوا يرحلون بينها وبين جزيرة سينا وما وراءها أيضًا، وربما اتصلوا بإخوانهم بدو العراق؛ لأنهم جميعًا من أصل واحد، و«شاسو» و«عرب» بمعنى واحد.

٣- إنك إذا رجعت أيضًا إلى تاريخ مصر القديم رأيت أن الشاسو[٢] كثيرًا ما

---

(١) راجع كتاب «العرب قبل الإسلام» لجرجي زيدان و(A History of Egypt) للسير فلندرس بتري.

(٢) يقول جرجي زيدان: إنهم ملكوا مصر من أوائل القرن الثالث والعشرين حتى أوائل القرن الثامن عشر قبل الميلاد ٢٢١٤-١٧٠٣، مع أن السير فلندرس بتري يستنتج من الآثار التي عثر عليها أنهم حكموا مصر من ٢٠٩٨-١٥٨٧ قبل الميلاد.

يسطون على المصريين في مدنهم؛ من أجل ذلك كان المصريون يخافون بأسهم وينظرون إليهم نظرة احتقار لبُعدهم عن ضروب الحضارة. ولما كانوا في الوقت نفسه مشهورين بالشدة والشجاعة شأن سكان البادية كان الفراعنة يستعينون بهم في حروبهم بعضهم على بعض في كثير من الأحيان.

وقد ساروا على هذه الخطة حينًا من الدهر إلى أن سنحت لهم فرصة وثبوا بها على مصر، وذلك في زمن إبراهيم الخليل، فملكوها وظلوا فيها حكامًا وملوكًا مدة خمسة قرون، وكونوا فيها ملكًا عربيًّا تعرف قوته من أن يوسف عليه السلام كان مستوزرًا فيه.

٤- وكما أنهم نزلوا هذه الديار واستوطنوها مدة قبل أن غزوا مصر فإنهم لم يجدوا ملجأ سواها يوم غلبوا على أمرهم هناك، وحالفوا المصريين على أن يخرجوا من مصر إلى حيث يشاءون.

ويقول السير فلندرس بتري: إنهم كانوا آنئذ ٢٤٠٠٠٠٠ نسمة، أموا كلهم سوريا عن طريق الصحراء، إلا فئة قليلة منهم فإنها تخلفت خوفًا من بطش الآشوريين وسيطرتهم؛ ولهم في «تل الفارعة» و«تل جمة» و«تل العجول» من الآثار ما ينطق بذلك.

٥- لا ريب عندي بأن قسمًا غير قليل من عربان بئر السبع من بقايا الشاسو أو العمالقة المتقدم ذكرهم.

إن نظرة بسيطة إلى صورهم المنحوتة على الأحجار والآثار القديمة، وأخرى إلى بعض العربان في يومنا هذا- تدلك على مبلغ هذا الاستنتاج من الصحة.

ولي الأمل الكبير في أن يوفق أساطين علم الأقوام (Etnography) إلى بحث هذه النقطة بحثًا علميًّا تامًّا.

الفصل السادس

في

بني إسرائيل

١- إن تاريخ بئر السبع حافل بالوقائع التي لها صلة ببني إسرائيل، إنا نود أن نشير هنا ليس إلى المهم من هذه الوقائع فحسب بل إلى الثابت منها.

٢- أتينا في مكان آخر من هذا الكتاب[١] على ذكر قصة سيدنا إبراهيم، وزوجته سارة، وولده إسحاق؛ والقتال الذي جرى بينه وبين أبيمالك ملك الفلسطينيين من أجل بئر الماء في «بئر السبع».

إن تاريخ هذه الحادثة لم يكن معروفًا بالضبط لدى المؤرخين، وإنما اعتاد هؤلاء أن يقولوا: إنها وقعت حوالي ٢٠٠٠ ق.م.

٣- إن أول كيان قومي لبني إسرائيل أسسه موسى يوم جمع هذا شملهم، وأنقذهم من غربتهم في مصر، وأتى بهم إلى أرض كنعان[٢].

إن عصيان قومه وامتناعهم عن الحرب، ثم تيههم وما إلى ذلك من الحوادث التي ذكرت في أكثر كتب التاريخ- لم نر فائدة من ذكرها هنا؛ وإنما نكتفي بالقول: إن موسى حاول في بادئ الأمر دخول الأرض المقدسة من ناحية «بئر السبع»، ولكنه فشل، وأيقن أنه لا يستطيع التغلب على من كان فيها من العمالقة، فدخلها من ناحية «أريحا» بعد أن تغلب على الكنعانيين.

---

(١) راجع ما نقلناه عن أسفار «العهد القديم» في الباب الأول.

(٢) ذهب بعضهم إلى أن بني إسرائيل خرجوا من مصر في ١٢٢٠ ق.م؛ وقال آخرون: إن ذلك حدث عام ١٤٨٠ ق.م.

ويعلل هانتنغتون E.Huntington فشلهم هذا بأن العمالقة كانوا متحصنين في «النقاب»[١]، وليس من السهل على أي جيش في العالم أن يجتاز هذه النقاب من غير أن يتكبد خسائر فادحة.

كاد بنو إسرائيل يشرفون على الهلاك في المرة الأولى لولا أنهم ارتدوا على أعقابهم، ثم حاولوا مرة ثانية اجتياز منطقة النقب «السبع»، وإخضاع العمالقة يوم أرسل «يشوع بن نون» الجواسيس ليرتادوا هذه البلاد، فجاء الجواسيس ورجعوا حاملين ذلك النبأ الهائل: «إن فيها قوما جبارين».

عندئذ عدل بنو إسرائيل عن اجتياز بلاد النقب، وحادوا عنها، فساروا إلى بلاد «آدوم»، ومن هناك اتجهوا نحو الشرق، فدخلوا «موآب»، ومن هناك جاءوا إلى أريحا، ثم إلى أرض الميعاد.

٤- عندما احتل بنو إسرائيل فلسطين رأوا فيها مقاومة شديدة من العمالقة، والفلسطينيين، والكنعانيين وغيرهم من سكان البلاد. وقد زاد في بلوائهم تفرق كلمتهم. وظلوا كذلك حتى صار «شاءول» ملكًا عليهم ١٠٩٥ ق.م.

٥- ولما اعتلى داود عرش الملك ١٠٥٥ ق.م على أثر موت «اشبال بن شاءول» ظل يبعد الفلسطينيين عن جبال اليهودية والمرتفعات المطلة على السهل حتى استولى على «غاث»[٢].

وبذلك تم له النصر عليهم ١٠٠٠ ق.م.

وفي تلك الأثناء احتل القدس، وجعلها قاعدة ملكه، وسار في فتوحاته نحو

---

(١) هي مسالك وعرية تخترق الجبال التي تفصل سهل السبع عن «وادي العربة» وهذه كثيرة ذكرناها كلها عند البحث عن «وادي العربة» ومنازل السعيديين.

(٢) عراق المنشية.

الشمال مما لا يدخل في نطاق بحثنا الآن.

وأما في الجنوب فقد أخضع العمالقة وأخضع الأدوميين في وادي الملح، وجعلهم يدفعون له الجزية، وقد ضبط «جرار» عام ٩٩٥ ق.م، وأقام في «صقلغ»[١] سنة أربعة شهور.

٦- وقد ازداد هذا الملك اتساعًا في عهد سليمان من الفرات حتى التخوم المصرية، ويظهر أن هذا العهد كان عهد إصلاح وتنظيم في نفس الوقت؛ فقد حصن سليمان «ثمارا»[٢] لأجل وقاية الدرب الموصلة بين الخليل والبتراء. وسيطر على الطريق المؤدية إلى «أزيون-جبر»[٣] بالقرب من «أيلة»[٤] حيث أنشأ المراكب البحرية وبذلك تمت له السيطرة على الطرق التجارية بين الشام ومصر من جهة، وبين بلاد العرب وغزة من جهة أخرى.

٧- إن هذا النصر الذي ناله داود وابنه سليمان من بعده قد قضى على الكنعانيين والعموريين قضاءً تامًّا، فلم يعد التاريخ يذكر أن هذين الشعبين كونا كيانًا قويًّا ذا سيادة وسلطان بعد ذلك التاريخ.

٨- وأما في زمن «رحبعام» فقد ضعفت شوكة اليهود، وسار «شيشق» ملك مصر إلى القدس فافتتحها، وتوج دخيلة «يربعام»، وما هي إلا برهة حتى انقسمت البلاد ٩٧٥ ق.م إلى مملكتين: «إسرائيل» في الشمال، و«يهوذا» في الجنوب.

---

(١) يظن أنها «عصلوج» وقد جاء ذكرها في الإصحاح ١٥ و١٩ من سفر يشوع «إذ أعطاها أخيش لداود» في الإصحاح ٣٠ من السفر نفسه «أن العمالقة أحرقوها في غياب داود، وسكنها بنو يهوذا بعد السبي».

(٢) يظن أنها «كرنب».

(٣) يظن أنها «عين غضيان».

(٤) العقبة.

٩- ظلت ديار السبع من نصيب سبط يهوذا كما تقدم، من عام ٩٧٥ ق.م حتى عام ٥٧٦ ق.م.

وقد سعيت كثيرًا لأن أبحث آثارهم في هذه الديار فلم أتمكن من نوال بغيتي بأكملها، ولكني عثرت على بيان مسهب للقس أسعد منصور في كتابه «جغرافية الكتاب المقدس» أشار فيه إلى المدن التي جاء ذكرها في أسفار العهد القديم، وإلى مواضع تلك المدن في الوقت الحاضر فليرجع إليه من شاء.

١٠- عندما ضعفت شوكة اليهود راحوا نهبًا مقسمًا بين حكومتي مصر وبابل.

كلما انحازوا إلى جهة غضبت عليهم الجهة الأخرى وقامت تصب عليهم جام غضبها.

ومملكة يهوذا «بما فيها من ديار السبع الحالية» كانت عرضة لجميع هذه التيارات.

انظر مثلا: بعد أن كان «آحاز» أحد ملوك اليهود منحازًا إلى آشور، ومستعينًا بملكها «تغلث فلصر» ندم وعصاه، ثم راح يحتمي بالمصريين؛ الأمر الذي سبب غضب «سنخريب» وأدى إلى حروب طاحنة بين الفريقين.

وفي عهد «صدقيا» أيضًا انحازت مملكة يهوذا إلى ملوك مصر؛ ولما صارت كلمة بابل هي العليا انسلخت هذه عن مصر ودخلت تحت طاعة بابل، فجاء «نبوخذ نصر» ونفى اليهود إلى العراق فأصبحت هذه البلاد منذ تلك الآونة مستعمرة بابلية.

١١- ولما احتل الفرس فلسطين في زمن كبيرهم «كورش» سمحوا لليهود بالرجوع إلى فلسطين ٥٣٦ ق.م ليتكئوا عليهم أثناء غزوهم مصر، وقد ملكوها في زمن خلفه «كمبيز».

١٢- أن الفاتح الكبير «إسكندر المقدوني» وإن كان قد اكتسح هذه البلاد أثناء فتحه مصر؛ إلا أن اليهود لم يكونوا آنئذ من القدرة بدرجة يستطيعون مقاومته. وبعد وفاة الإسكندر ٣٢٣ ق.م تفرقت مملكته، فأصبحت سوريا في حكم «سلوقس» من قواده، وملك «بطليموس» مصر، وأخذت هذه البلاد تتلقب في مهب الريح بين البطالسة في مصر والسلوقيين في سوريا.

١٣- ولما احتل القائد الروماني الشهير «بومبي» فلسطين أصبحت هذه ولاية مستقلة استقلالا داخليًّا تحت السيادة الرومانية، فقد ولوا عليها بادئ ذي بدء أحد أفراد الأسرة المكابية الشهيرة «هركانوس» ثم «انتيباس» فـ«هيرودس».

وبعد وفاة هذا التحقت فلسطين بروما مباشرة، وأخذت تدار من قبل حكام رومانيين.

وفي عهد «أغسطس قيصر» أي قبيل وفاة هيرودس ظهر السيد المسيح.

ولقد قامت ثورات وجرت حروب شديدة بين اليهود والرومان في عهد الاحتلال الروماني، أدت إلى تمزيق شمل اليهود.

وعندي أن قسما كبيرًا من المدن التي جاء ذكرها في أسفار العهد القديم قد تهدم في هذا العهد:

إما من تأثير الحرب رأسًا، أو لأن سكانها غادروها بالمرة، ومما يدلك على ذلك أن المدن التي أنشئت حول السبع في العهد الروماني والبيزنطي أقيمت بالقرب من المواضع القديمة ولم تقم على أطلالها.

١٤- في عهد «قسطنطين» تنصر أهل فلسطين، فاضطهدوا اليهود، وأجلوهم عن البلاد. وكان ذلك في أوائل القرن الرابع للميلاد.

وقد حدثنا التاريخ أن اليهود، حبًّا بالانتقام من المسيحيين ساعدوا العرب على فتح فلسطين، ودلوهم على مداخلها؛ ولم تقم لهم قائمة في هذه البلاد بعد ذلك التاريخ.

obeikandl.com

الفصل السابع
في
الآشوريين

كان الآشوريون في عهد قسم كبير من ملوك بني إسرائيل على اتصال بفلسطين.

وقد اجتاحت جيوشهم البلاد في كثير من الفرص، فأخضعوا ملوكها وأرغموهم على دفع الجزية.

وما كان من بنو إسرائيل ليرفعوا رءوسهم، ويستنشقوا نسيم الراحة إلا عندما يعدل الآشوريون عن مهاجمة فلسطين بسبب موت أحد ملوكهم، مثلا، أو مقاومة ملوك سوريا لهم.

انظر ماذا جرى في عهد داود وسليمان!

ألقى السوريون عام ١٠٥٠ ق.م عن ظهرهم عبء الآشوريين، فتنفس بنو إسرائيل الصعداء، وساروا بمملكتهم نحو المجد، ولم يسترد الآشوريون سطوتهم إلى بعد موت سليمان.

٢- تغلب «تيغلات بيلازر» على بني إسرائيل، واستولى على بلادهم عام ٧٣٤ ق.م، ومن هناك سار نحو منازل الفلسطينيين، فافتتح عسقلان وغزة، ثم أخضع فريقًا من أمراء العرب وملوكهم.

٣- وفي سنة ٧٢٠ ق.م مشى «سرجون» بجيوشه إلى جنوب فلسطين فأخضع الفلسطينيين، وبني يهوذا، وغلب سباقون الأثيوبي ملك مصر وأخذ منه الجزية. كما أنه أسر حانون ملك غزة في موقعة جرت بينهما في «رفح».

وفي عام ٧١٥ ق م أخذ الجزية من بلاد العرب، ونقل فريقًا من بني ثمود

وغيرهم من القبائل العربية الثائرة إلى السامرة.

٤- ولما مات سرجون ٧٠٥ ق.م وأعقبه ولده «سنخريب» عصى اليهود -وفي رأسهم ملكهم «حزقيا»- أمره، فجاءهم هذا بجيش عرمرم وأخضعهم، وقد أخضع ملوك فلسطين كلهم. كما أنه انتصر على ملوك مصر والحبشة الذين أرسلوا إليه جيشًا ليحاربه فغلبهم في موقعين أحدهما «تمنه»[١].

ومما ذكره هذا الملك عن فتوحاته أنه استولى على ٤٦ مدينة من مدن بني يهوذا المحصنة[٢] ودكها دكًا.

وقبل أن يموت قام بغزوة أخرى على فلسطين ٦٨٨ ق.م وفي هذه المرة وصل إلى بلاد العرب، وهاجم عاصمة «آدوم»، وأسر ملكة العرب والاهة البلاد، ثم قفل إلى بلاده منصورًا.

٥- وفي زمن ولده «أسر حدون» ٦٨٠ ق.م اجتاح الآشوريون فلسطين مرة أخرى، ولكنهم لم يأتوا في هذه المرة بعمل يذكر.

٦- ولقد أقام «أسر حدون» ولده «أشور بانيبال» على الملك قبل وفاته.

فغزا هذا مصر، وتناول في طريقه إليها الجزية من ملوك فلسطين.

٧- وفيما كان الآشوريون يشتغلون في إطفاء ثورة «بابل» عام ٦٥١-٦٤٨ ق.م قام العرب بغزو فلسطين، فاجتاحوا بلاد «أدوم» و«عمان» و«حوران» و«موآب» وغيرها من البلاد؛ لكن أشور بانيبال عاد فتغلب عليهم، وظلت ديرة السبع تحت حكمه زمنًا طويلا.

---

(١) يقول السير جورج أدم سمث أنها «تبنة» وعندي أنها «دمنة» من أملاك الظلام.

(٢) منها «لاخيش» أي: «تل الحسى» على رأي السير فلندرس بتري أو «تل دوير» على رأي المستر ستاركي.

الفصل الثامن
في
الاثيوبيين

١- كان للأثيوبيين الذين تألفت منهم الأسرة المالكة الخامسة والعشرون في مصر ٧١٥-٦٦٥ ق.م جولات قصيرة في سوريا وفلسطين أيضًا. إلا أنهم ما كانوا في جولاتهم هذه شعبًا مزمع الاستيطان بل كانوا طبقة حاكمة؛ إذ ما كاد الآشوريون يتغلبون عليهم حتى زال تأثيرهم عن البلاد.

٢- ولقد استنجد «يهوشع» ملك إسرائيل بملكهم «سباقون» كي ينصره على عدوه «شلمنصر» ملك الآشوريين، فلبى هذا نداءه، وسار مع «حانون» ملك غزة إلى مقاتلة الآشوريين؛ ولكنه فشل في موقعة دارت رحاها بين الفريقين في رفح. حتى إن سباقونا نفسه نجا منها بأعجوبة، ورجع إلى مصر بعد أن كاد يضل سبيله في الصحراء ويهلك.

٣- ومن ملوكهم «تاهاركا»[1] ٦٩٣ ق.م فقد اكتفى هذا بأن اتخذ فلسطين «منطقة نفوذ» له، بيد أنه لم يشغلها إشغالا حربيًا. وقد كانت سيطرته تزداد وتتضاءل بتضاؤل وازدياد سيطرة الآشوريين في البلاد.

---

(١) وعلى قول طهراق.

obeikandl.com

الفصل التاسع
في
البابليين

افتتح «نبوخذ نصر»[١] فلسطين، وأقصى اليهود عنها إلى العراق وهاجم مصر ٥٦٨ ق.م.

ويظهر أنه أنسحب إلى بابل عندما أحس بالشيخوخة، فانتدب ابنه «بختنصر» لإكمال المهمة التي كان يريد القيام بها، وأمده بجيش لاسترجاع فلسطين والشام من المصريين.

بيد أن الأب مات قبل أن يبلغ الابن غايته، فاضطر هذا أن يسرع في الرجوع إلى بابل على أمل أن يعود إلى إتمام مهمته في فرصة أخرى.

ولقد أعاد الكرة مرة أخرى فاحتل هذه البلاد، وهاجم مصر، وقتل ملكها واستولى عليها، وبعد أن أقام عليها عاملا من أمرائه عاد إلى بلاده.

---

(١) عرف هذا الملك بهذا الاسم، ولكن الأستاذ فلندرس بتري يقول عنه «نبوخذ رزر».

obeikandl.com

الفصل العاشر
في
الآدوميين

أولاد عيسو بن إسحاق[١] وكانت منازلهم بادئ ذي بدء جنوبي البحر الميت[٢] ثم اتسعت حتى شملت جزءًا كبيرًا من الأراضي التي تؤلف ديرة السبع.

في الوقت الحاضر كانوا قبائل وفرقا. وقد حاول شاءول أن يتغلب عليهم في القرن العاشر ق.م فلم يفز بطائل.

ولما تولى داود الأمر أخضعهم، فمالئوا أعداءه، وأعانوهم على حربه، وقد ساعدوا «نبوخذ نصر» يوم نهب أورشليم، وذبح أهلها. فجزاهم خير الجزاء، وأيد سلطتهم في «آدوم»، ووسع نطاقها من تخوم مصر حتى البحر المتوسط.

وقد ظلوا في سعة من العيش حتى داهمهم الأنباط، واحتلوا بلادهم. وبذلك انتهى ملكهم وسلطانهم.

أعتقد أن فريقًا كبيرًا من السراحين والسعيديين يرجعون بأصلهم إلى الآدوميين، وأوجِّه نظر الباحثين ليبحثوا هذه النقطة بحثًا علميًّا واسعًا.

---

(١) «تاريخ فلسطين» تأليف عمر الصالح البرغوثي وخليل طوطح.

(٢) وادي العربة ومنازل السعيديين والسراحين في الوقت الحاضر.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الحادي عشر

في

الأنباط

خلفاء الآدوميين في شبه جزيرة سينا وجنوب فلسطين. قهروهم، واحتلوا بلادهم، ثم أنشئوا دولة الأنباط العربية[١] التي امتد سلطانها من خليج العقبة حتى حدود مصر وشواطئ البحر المتوسط، وقد شمل أيضًا سينا وامتد إلى حوران والعراق. وكان ذلك حوالي القرن الرابع ق.م. وقد ظلت دولتهم قائمة حتى أوائل القرن الثاني بعد الميلاد، إذ دخلت بلادهم في حوزة الرومان وكان ذلك عام ١٠٦م.

٢- إنهم عرب، لغتهم آرامية، عاصمتهم البتراء وهي التي تدعى «وادي موسى» في الوقت الحاضر.

وقد كانوا مسيطرين على طرق التجارة من الشام إلى البحر الأحمر فبلاد العرب ومدائن صالح.

ومن أهم المدن التي شادوها في هذه الديار «عبدة»[٢]، وعلى قول: إنها سميت كذلك بالنسبة إلى عبادة[٣] أحد ملوكهم.

وقد عثر بعض المنقبين في «الخلصة» على آثار نبطية وكتابة يستدل منها أنه كان للأنباط شأن فيها.

٣- ومن رأي «السير جورج أدم سمث» أن الأنباط كانوا منذ عام ٧٢٠ ق.م

---

(١) «العرب قبل الإسلام» لجرجي زيدان.

(٢) راجع ما كتبناه عن «عبدة» في باب الطلول والآثار.

(٣) لا أدري إذا كان هذا هو عبادة الأول ٩٠ق.م أو عبادة الثالث ابن مالك الأول ٣٠ق.م.

حتى نفي اليهود ٥٨٦ ق.م يعيشون فيها وراء النقاب المطلة على وادي العربة.

وفي زمن النرس ٥٣٨-٥٣٢ ق.م امتدوا نحو الغرب حتى اجتازوا النقاب. واستولوا على القسم الجنوبي من ديرة السبع الحالية حيث ينزل العزازمة في يومنا هذا. وقد كانوا في هذا العهد مجاورين للآدوميين في الشمال.

ولما احتل الإسكندر فلسطين سيطر على جميع الأراضي التي تؤلف ديرة السبع في الوقت الحاضر إلا الأنباط فقد ظلوا في منازلهم بوادي العربة حيث ينزل الآن السعيديون وفريق من السراحين وفيما وراء ذلك.

٤- ولما قام الرومان بحملتهم[١] على بلاد العرب في عهد أغسطس قيصر عام ٨١ ق.م؛ إذ بعث هذا عامله على مصر «اليوس غالوس» لفتح جزيرة العرب، واستنصر الأنباط، أبدى هؤلاء رغبتهم في نصره وأرسلوا إليه وزيرهم «سيلوس». ولكن هذا الوزير خدعهم، وذهب بهم في طرق وعرة أعجزهم المرور منها، فقضوا أيامًا قاسوا فيها أشد أنواع العذاب.

ويقول سترابون: إن أقصى مكان بلغوه بعد ذلك العذاب مدينة قال عنها: إنها بلد الرامانيين[٢] (؟) وملكها اسمه اليزاروس.

لم يستطع الرومان الوصول إلى البتراء عن تلك الطريق، إذ فتك العطش بهم فتكًا ذريعا؛ ولكنهم وصلوها عن طريق أخرى. ومن هناك ساروا إلى البحر الأحمر، فمصر، بعد أن قضوا ٦٠ يومًا في الطريق.

---

(١) ذكر هذه الحملة في رحلته الرحالة اليوناني الشهير «استرابون» إذ كان هذا معاصرًا لأغسطس قيصر.

(٢) (Rhamanital) كذا ذكرها سترابون وعندي أنها هي المكان الذي يسميه البدو في يومنا هذا «وادي رامان» وهو واد سحيق تحيط به مرتفعات شاهقة. جئته عام ١٩٣٠م وهو من أملاك السراحين.

٥- ظل الأنباط محتفظين باستقلالهم ومجدهم[1] حتى سنة ١٠٦م، ويظهر أنهم بعد ذلك ركنوا إلى الترف فجهز الإمبراطور «تراجان» عليهم حملة كبيرة، أصابهم من جرائها الفشل وغلبوا على أمرهم. حتى إن الروم ضربوا نقودًا خاصة بذلك الفتح على سبيل الذكرى.

٦- بعد أن غلب الأنباط على أمرهم انحلت قواهم، وأخلدوا إلى الدعة، ثم اختلطوا بأهل البلاد الأصليين من سريان وآراميين، وانتشروا على حدود سوريا وفلسطين مما يلي البادية بين سينا والفرات.

(١) أنشأ الأنباط حضارة باهرة وقطعوا شوطًا واسعًا في ميادين الفن والرقي.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني عشر
في
الفرس

للفرس في هذه البلاد وفي مصر جولتان: الأولى، وقد امتدت قرنًا وربع قرن، اشتهرت بالعمران والإصلاح؛ والثانية كانت على الضد من الأولى، تناولت يد التخريب والتدمير في هذه ما عمر في تلك.

ومن يدري لعل ما نراه اليوم من آثار المدن والقرى المتهدمة في هذه الديار أثر من آثار ذلك العهد.

٢- عندما استولوا على فلسطين ٥٣٨ ق.م كانت ديرة السبع الحالية تحت أشغال عناصر جمة منها: «اليهود» وقد سمح لهم كبير الفرس وملكهم العظيم «كورش»[١] بالرجوع من المنفى فنزلوا في الجبال وفي قسم من السهل الممتد إلى بئر السبع فتل الملح شرقًا ثم إلى زحيليقة وتل الحسى شمالا؛ و«الآدوميون» حيث العزازمة وفريق من القديرات والظلام الآن؛ و«الأنباط» في أقصى الجنوب حيث يعيش الآن السعيديون وفريق من السراحين.

٣- وفي عام ٥٢٥ ق.م طمع ملكهم كمبيس وهو ابن كورش في امتلاك وادي النيل، فأخذ يبحث انسب الطرق المؤدية إليه.

وعقد معاهدات مع القبائل البدوية الضاربة خيامها على طريقه لتمده بالماء الذي يحتاج إليه؛ وبهذا تم له عبور البادية وافتتاح مصر.

---

(١) يقول الأستاذ Myer: إن كورش هذا هو المعروف عند العرب بكسرى. راجع ما ذكرناه عن كسرى في الوجه التالي.

٤- وقد تولى الملك بعده داريوس[1] الأول ٥١٣ ق.م ثم كسركس الأول ٤٨٦ ق.م فارتا كسركس الأول ٤٦٦ ق.م فسوغديان ٤٢٥ ق.م فداريوس الثاني ٤٢٤ ق.م.

وفي زمن هذا الأخير غلب الفرس على أمرهم، فغادروا مصر بعد أن أذاقوها أنواع العذاب مما أحدثوه وحدث بسببهم من العبث بالرعية، والثورات المهلكة، ولم ينجُ بلد من أذاهم لا في الذهاب ولا في الإياب.

٥- إلا أن الفرس لم ينسوا حلاوة الاستعمار طويلا، بل قاموا مرة أخرى في زمن أوخوس ٣٤٢ ق.م واحتلوا مصر وظلوا فيها حتى أرسيس بن أوخوس ٣٣٩ ق.م، وفي المدة الأخيرة من عهد الملك داريوس الثالث ٣٣٦-٣٣١ تقهقرت دولة الفرس، وأفل نجمها من هذه البلاد للمرة الأخيرة، وذلك بإشراق نجم اليونان الذين افتتحوا هذه الديار بقيادة عظيمهم؛ وباني مجدهم «الإسكندر المقدوني».

(١) المعروف عند العرب بدارا.

الفصل الثالث عشر

في

اليونان

احتل اليونان هذه البلاد ٣٣٢ ق.م ومصر في زمن ملكهم الكبير «الإسكندر المقدوني»، فقد تغلب هذا القائد العظيم على الفرس وأخرجهم منها.

٢- بعد وفاة الإسكندر ٣٢٣ ق.م قامت دولة البطالسة في مصر، ولم يرتقِ ملك من ملوكهم عرش مصر إلا وفكر في غزو سوريا وتدويخها، وما قاموا بالغزو والفتح مرة إلا وجعلوا هذه البلاد تئن تحت سنابك خيولهم، وشدة بطشهم.

ومن أشهر هذه الغزوات تلك التي قام بها بطليموس الأول سوتر ٣٢٣-٢٨٥ وبطليموس الثاني أفرجيت ٢٤٧-٢٢٢ وبطليموس الرابع فيلوباتر ٢٢٢-٢٠٥ ق.م.

٣- في كل غزوة من هذه الغزوات كانوا يجتاحون البلاد[1] ويثوبون بالغنائم والأسرى بعد أن ينكلوا بالسوريين أشد التنكيل.

٤- إلا أن سوريا عادت في زمن بطليموس السابع فيلوماتر ١٨١-١٤٦ ق.م. فشنتها على مصر حربًا شعواء انتقمت منها لنفسها وأشفت بعض الغليل.

فكان هذا لسوريا نصرًا في الحرب، ونصرًا في السياسة؛ تمكنت معه فيما بعد من دس الدسائس. وإحاكة المؤامرات.

---

(١) القسم الذي احتلوه من ديرة السبع الحالية هو الغربي والمتاخم لشواطئ البحر المتوسط، ولم أعثر على أية رواية تؤيد أنهم احتلوا داخلية البلاد، ذلك كان شأن أكثر الأمم التي عبرت هذه البلاد من سوريا في طريقها إلى مصر، والعكس بالعكس.

إلى أن جعلت كليوبترا ٥٣-٣٠ ق.م آخر ملوك البطالسة في مصر ترتمي في أحضان يوليوس قيصر أولا وأنطوني ثانيًا، إذ استنجدته فأنجدها؛ وكانت نجدة قضت على منازعيها، ووطدت سلطانها توطيدًا.

ثم تطورت هذه النجدة إلى حب فغرام؛ إلى غير ذلك مما يعرفه القارئ من انتهاء الرواية بهرب أنطوني وعشيقته كليوبترا تجاه أكتافيوس، ثم انتحاره ظنًّا منه أنها ماتت، وانتحارها لأنها عجزت عن إيقاع أكتافيوس في شرك غرامها. وكان ذلك سنة ٣٠ ق.م؛ تلك السنة التي انتهت بانتهاء الحكم اليوناني في مصر وفي هذه البلاد، ومد النفوذ الروماني فيهما.

obeikandl.com

الفصل الرابع عشر
في
الرومان والبيزنطيين

١- تاريخ الرومان حافل بالوقائع المهمة في هذه البلاد، وإذا رجعت بنظرك إلى ما كتبناه عن الطلول والآثار القديمة التي فيها- علمت أن ديرة السبع الحالية كانت في عهدهم مزدهرة.

وإذا ما عثرت في تاريخ بعض الخرائب على ذكر لبيزانس والبيزنطيين فاعلم أن هؤلاء أيضًا هم رومان.

وسنأتي على ذكر السبب في هذه التسمية وفي انفصال المملكة الرومانية إلى مملكتين في فقرات أخرى من هذا الفصل.

٢- لا بد لنا هنا أن نلقي نظرة على تاريخ الرومان في فلسطين لنتمكن من تتبع آثارهم في ديرة السبع أيضًا.

بيد أنا نود أن نقول قبل كل شيء: إن الآثار التي عثر عليها المنقبون بين الطلول تدل على أنه كان للرومان أثر غير ضئيل في هذين العهدين: سواء كان ذلك من الوجهة الفنية، أو من الوجهتين التجارية والحربية.

٣- احتل القائد الروماني الشهير «بومبي» فلسطين سنة ٦٣ ق.م. فأصبحت هذه مقاطعة مستقلة استقلالا داخليًا تحت السيادة الرومانية.

ولكنهم لم يحتلوا المنطقتين الجنوبية والشرقية من ديرة السبع الحالية، بل ظلتا بيد الأنباط.

٤- وكذلك كان الأمر في عهد «مرك أنطوني» ٤٢ ق.م و«هيرودس الكبير»[١] ٣١ ق.م، فقد ظلت ديرة السبع إلا القسم الشمالي والغربي منها بيد الأنباط.

٥- ويظهر أن هذه الديرة لم تدخل في حوزة الرومان إلا في عهد «تراجان» ٩٨-١١٧م، وظلت في كنف سلطانهم حتى عام ٦٤١م.

٦- ومن ملوكهم الذين كان لهم شأن يذكر فيها «تراجان»[٢] ٩٨-١١٧م و«قسطنطين»[٣] ٢٨٨-٣٣٧م و«ثيودوسيوس»[٤] ٣٧٩-٣٩٥م و«جوستانيان»[٥] ٤٨٣-٥٦٥م.

---

(١) أقيم هذا حاكمًا عامًا على فلسطين بدلا من أنطوني الذي كان منشغلا في مكافحة أكتافيوس، ولم أعثر على ذكر لبئر السبع في زمنه، والمظنون أنه لم يحتلها؛ ولم يهبط أي قسم منها إلا عندما قامت ثورة بينه وبين أنتيغونوس بن أريستو بولس الثاني، يوم اضطر إلى الهرب، فهرب عن طريق المسعدة والبتراء ومصر إلى روما. وهناك خول السلطة التامة وأقيم ملكًا على اليهود. ورجع إلى فلسطين وعاشت هذه زمنًا تحت الانتداب الروماني.

(٢) أنه أحد الملوك الخمسة الصالحين الذين تبوءوا عرش الرومان، وأول من اعتلى هذا العرش من أهل المستعمرات وهو أسباني الأصل، قام بإصلاحات إدارية وترتيبات عسكرية لا عهد للإمبراطورية الرومانية بمثلها من قبل، وما كاد ينتهي من هذه الإصلاحات حتى قام بضرب عصا التسيار في ميادين الفتح والاستعمار.

(٣) أول من أزاح الاضطهاد عن المسيحيين، وسمح للنصرانية بالانتشار في الغرب، بينما كانت هذه مضطهدة في الشرق، وقد قامت حروب ٣١٤ب.م بينه وبين ليسينيوس زعيم المملكة الشرقية. كان النصر فيها حليفه، وبذلك تم له ما أراد، وأصبح القائد غير المنازع للمملكة الرومانية في الشرق والغرب.

فأقام على أنقاض «بيزانس» القديمة مدينة جديدة ٣٣٠ب.م سماها القسطنطينية وجعلها قاعدة ملكه.

(٤) أحد قياصرة الرومان في الشرق، وقد انتصرت العقيدة الأرثوذكسية في عهده انتصارًا باهرًا، ولما توفي ٣٩٥ب.م اقتسم ولداه «أركاديوس» و«هونوريوس» المملكة فجعلاها مملكتين: واحدة في الشرق وعاصمتها بيزنس، وأخرى في الغرب وقاعدتها روما. وهناك من يعتقد أنه هو الذي أشار بهذا التقسيم قبيل وفاته.

(٥) تغلب على الفرس واسترد من البرابرة جميع البلاد التي أخذوها من الرومان ونفخ في الإمبراطورية الرومانية روح الحياة بعد أن كانت تشرف على الهلاك، وجعل القسطنطينية قاعدة الحكم، وفي عهده انتقل إلى أوروبا وباءٌ عرف بالموت الأسود وظن أنه جاء إليها من مصر.

ويعزى إلى جوستانيان هذا أكثر الأبنية والإصلاحات التي تمت في هذه الديار كالحصون في الحفير، وكرنب، والكنائس في بئر السبع، وسبيطة.

٧- لم يذكر في خارطة بويتنغر[١] من خرائب بئر السبع الحالية سوى «الخلصة» و«عبدة» و«ثمارا»[٢].

٨- وأما «بئر السبع» فإن أكثر الكتابات والنقوش التي عثر عليها المنقبون فيها يرجع تاريخها إلى ٣٥٦، ٤٩١، ٥١٠، ٥٢٧، ٥٥٥، ٥٦٥، ٥٦٩م.

وقد كانت آنئذ قرية كبيرة.

٩- يظهر أن حبل الأمن في هذه الديار كان مضطربا ثم استتب في عهد الرومان.

وقد ذكر الأستاذ Ritter في كتابه Die ErdKunde[٣] نقلا عن Notitia Dignitatum Orientis[٤] أنه كان في فلسطين إذ ذاك ثلاثة عشر موقعا محصنا، تسكنها وحدات من الجيش الروماني؛ وأن هذه الوحدات كانت تعمل تحت إمرة قائد فلسطين العسكري Dux Falaestinae، وإن أول موقع ذكر في القائمة هو «بئر السبع» وكان فيه سرية من الفرسان قوامها جند من دالماتسيا.

١٠- ومن الأعمال التي قاموا بها أنهم استرضوا البدو الرحل، وحالفوهم،

---

(١) إنها خارطة تصور أقسام الإمبراطورية التي سيطر عليها الرومان، والطرق الحربية التي سلكوها فاستنسخها Conrad Peutinger من أوغسبورج واكتشفت في راتزبون عام ١٥٠٧ب.م. وهي موجودة الآن في ڤينا، ويظن أنها جمعت ووضعت على هذا النمط في العصر الثالث للميلاد.

(٢) كرنب.

(٣) طبع في برلين عام ١٨٤٨م.

(٤) كتاب لاتيني يبحث أحوال المملكة الرومانية، وهو مصدر ثقة عن الحوادث التي جرت في عهد الرومان الأخير.

ومنحوهم الألقاب والرتب؛ ثم استخدموهم لا في سبيل توطيد الأمن فحسب، بل في سبيل التعمير والإصلاح أيضًا.

ولم ينقطع سيل المهاجرين من العرب إلى هذه البلاد في العهد الروماني فاستوطنها عدد كبير منهم[١].

ومن هؤلاء «بنو جفنة» الذين غادروا اليمن ١٠٤م ونزلوا هذه الديار؛ فازداد بمجيئهم عدد العرب الذين كانوا هنا من قبل، وقويت شوكتهم.

١١- وقد كانت بئر السبع مركزًا لإبرشية مهمة يقطنها مطران، وفيها كنائس عديدة.

رأى قسما منها السائح الألماني (L.Von Sudheim) سنة ١٣٤٨ ولم تكن متهدمة. ولكنه قال: إن البلد نفسها كانت خرابًا.

وكذلك الرحالة الإفرنسي (De Maunde Ville) والسائحان الألمانيان المعاصران له (Von Suehem) و(Boldensele) فإنهم رأوا في بئر السبع كنائس، وكان ذلك عام ١٣٥٠ للميلاد.

والرأي السائد: أن بقايا هذه الكنائس ظلت قائمة حتى أواخر القرن الرابع عشر للميلاد.

١٢- وقد قطع الرومان شوطًا بعيدًا في سبيل عمران هذه البلاد. فلا المعابد والكنائس، حتى ولا المخافر والحصون المتقدم ذكرها كانت لتلهيهم عن واجباتهم الأخرى؛ فقد عبَّدوا الطرق، وحفروا الصهاريج، وأنشئوا المجاري، وأقاموا السدود، وغرسوا الأشجار.

---

(١) G.A.Smith.

١٣- ولم توصف إمبراطورية الرومان «باليونانية»[١] و«البيزنطية» إلا في عهد هرقل ٦١٠-٦٤١م المعروف عند العرب بموقفه حيال الدعوة الإسلامية، وظلت بئر السبع في احتلال البيزنطيين حتى تملكها العرب، وكان ذلك بتاريخ ٦٣٤ بعد الميلاد.

١٤- لا نود أن نعيد هنا ذكر الخرائب التي كتبنا عنها شيئًا غير قليل في الباب الثاني من هذا الكتاب، وإنما نود أن نشير إلى أن هذه البلاد، على ما يظهر لنا من بقايا طلولها وآثارها ومعابدها وصهاريجها وسدودها- كانت في ذلك العهد أهم منها في يومنا هذا من جميع الوجوه التجارية والحربية والدينية والعمرانية.

كان عدد نفوسها أكثر منه في يومنا هذا بدرجات، وكان أكثر أراضيها مزروعًا عنبًا وزيتونًا، وكان سكانها على جانب عظيم من الرفاهية والثراء. ونود أن نكتفي بالإشارة إلى أنه كان في «الخلصة» وحدها ما ينوف عن العشرين ألف نسمة من السكان، وكانت في عهد «ثيودوسيوس» مركزًا تجاريا مهما للترانسيت بين الهند وجزيرة العرب من جهة، وسوريا ومرافئ البحر المتوسط من جهة أخرى.

١٥- هنا لا بد للمرء أن يتساءل: كيف ازدهرت هذه البلاد في ذلك العهد على ما هو مشهور عنها منذ الأزل من قلة الينابيع وندرة الأمطار؛ ولا سيما لأن المعلوم أنه لا عمران ولا حياة إلا بالماء ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾، وكيف كان هذا العدد الكبير من المستعمرين الرومان والبيزنطيين يعيشون فيها.

لقد تعددت طرائق الباحثين وتباينت أقوالهم في تعليل هذ البحث، والكل متفق على أن سكان هذه البلاد الأقدمين ما كانوا ليكتفوا بالينابيع الضئيلة المبعثرة هنا

---

(١) لأن السواد الأعظم من رعايا الإمبراطورية كان يومئذ يونانيًا لغة وروحًا وعادة. واضمحل العنصر الروماني.

وهناك، والتي تكاد لا تذكر من حيث عددها وكمية المياه التي تنبع فيها.

وأما الأمطار فقد اختلفوا اختلافا بينًا في صددها[١]:

فمنهم من قال: إنها كانت في الأزمنة الغابرة أغزر منها اليوم، ومنهم من دحض هذه الفكرة، وقال: إنها لم تكن في زمن من أزمنة التاريخ أكثر منها في يومنا هذا[٢].

وعندي أن الأقدمين كانوا يضعون جل اعتمادهم على السدود[٣] والصهاريج[٤] من جهة وعلى الربح الذي كان يدر عليهم من وراء التجارة من جهة أخرى؛ لأن هذه المدن كانت واقعة على طرق التجارة التي تربط فلسطين مع بلاد العرب وبلاد الأنباط وما بين النهرين والهند ومرافئ البحر المتوسط.

إن الذين يعللون العمران الذي كان قائمًا في هذه البقعة من الأرض بهذه الأسباب يرجعون خرابها إلى هذه الأسباب نفسها، ويقولون: إن الخراب لم يخيم على ديرة السبع إلا عندما فقدت أهميتها التجارية، وبالأحرى يوم فقدت البتراء مجدها، وأضاعت العقبة مكانتها الأولى في عالم التجارة.

---

(١) راجع ما كتبناه عن هذا البحث في الوجه ١٧٥ من كتابنا «القضاء بين البدو».

(٢) يؤيد كلا الفريقين قوله بدلائل لا نرى محلًا لذكرها هنا.

(٣) هناك آثار أربعة سدود في كرنب، وسد في وادي السبع، وآخر في عصلوج، وفي العوسجي، وبالقرب من تل الملح، وفي جهات أخرى من هذا القضاء.

(٤) عثر المنقبون على صهريج في كل بيت من بيوت سبطة.

الفصل الخامس عشر
في
العرب

١- إنك إذا رجعت إلى ما كتبناه عن الغزوات القديمة والفتوحات المصرية الأولى في هذه الديار وجدت أنه كان للعرب شأن غير ضئيل في تلك الأزمان.

وقد كان الناس على عهد الفراعنة والآشوريين والفينيقيين في العهد القديم يريدون بالعرب[١] أهل البادية في القسم الشمالي من جزيرة العرب وشرقي وادي النيل في البقعة الممتدة من الفرات في الشرق إلى النيل في الغرب.

٢- ولقد مر بك[٢] أن الشاسو الذين جاء ذكرهم في فتوحات الفراعنة هم البدو، وأن هؤلاء هم الملوك الرعاة «هيكسوس» الذين دوخوا مصر، وكونوا فيها ملكا عربيًّا مدة خمسة قرون ٢٠٩٨-١٥٨٧ ق.م.

٣- وإذا رجعت إلى تاريخ الأنباط[٣] علمت أن هؤلاء ألفوا دولة عربية قاعدتها البترا «وادي موسى» وقد امتد سلطان هذه الدولة من خليج العقبة حتى حدود مصر وشواطئ البحر المتوسط، ثم شملت سينا، وامتدت إلى حوران والعراق، وكان ذلك قبيل القرن الرابع ق.م، وظلت هذه الدولة قائمة حتى أوائل القرن الثاني بعد الميلاد.

٤- ويظهر أن العرب[٤] لم ينفكوا عن ارتياد هذه البلاد بعد هذا التاريخ أيضًا

---

(١) «العرب قبل الإسلام» لجرجي زيدان نقلا عن هيرودتس المؤرخ اليوناني الذي توفي سنة ٢٠٦ق.م.

(٢) راجع الفصل الخامس من هذا الباب.

(٣) راجع الفصل الحادي عشر من هذا الباب.

(٤) «إتحاف الأعزة في تاريخ غزة» لمؤلفه الأستاذ «الشيخ عثمان الطاع».

وقبل ظهور الإسلام.

اذكر قوله تعالى: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ۝ ﴾ ولقد ثبت أن رحلة الشتاء كانت لليمن، ورحلة الصيف إلى غزة ومشارف الشام. وكانت قريش تقصد غزة في فصل الصيف بقصد التجارة وكانوا يسمونها «حمراء اليمن» ويألفون ضواحيها لسعتها وخصبها حتى توطنها قبائل كثيرة منهم قبل الإسلام.

ولا بد لنا أن نذكر هنا -والشيء بالشيء يذكر- أن عربان بئر السبع كانوا ولا يزالون حتى يومنا هذا يدعون «عربان غزة»؛ وأن قسمًا غير قليل منهم استوطن هذه الديار في الزمن الذي أشارت إليه الآية الكريمة المتقدم ذكرها.

٥- تُرى مَن مِن قبائل العرب نزل هذه الديار؟ تلك هي المسألة وذلك هو بيت القصيد:

(أ) (غزة من مواطن جرم، وجرم أحد بطون قضاعة، ولجرم أفخاذ كثيرة وفروع متعددة كلها كانت مساكنها ببلاد غزة) هذا ما يقوله ابن خلدون.

(ب) ذهب القاضي ولي الدين بن خلدون إلى أن «جرم قضاعة» هم الذين ببلاد غزة.

وأما القلقشندي فإنه يقول: إن أولئك هم «جرم طيئ» لا «جرم قضاعة».

وسواء كانوا جرم طيئ أو جرم قضاعة فإنهم لا شك من القبائل القحطانية، لأن جرم طيئ من بني كهلان، وجرم قضاعة من بني حمير. وكهلان وحمير ولدا يعرب. وهل يعرب وجرم سوى شعبين من بني قحطان.

(ج) وقد أيد الحمداني رواية القلقشندي فقال: جرم طيئ أحد الأحياء الإحدى

عشرة[1] التي تنتمي إلى كهلان. وقد أخذوا هذا الاسم بالنسبة إلى أمهم «جرم بنت الغوث بن طيئ» وهم الذين ببلاد غزة من الديار الشامية.

وقد كانوا متفقين مع ثعلبة بالشام على تدافع الفرنج عن المسلمين، فلما فتح السلطان صلاح الدين البلاد دخلت طائفة منهم مصر، وبقي بقاياهم بمكانهم ببلاد غزة.

(د) قلنا في تاريخ العزازمة أنهم من قضاعة فلنرجع الآن إلى قضاعة لنعلم إلى أي العرب ينتمون:

قال بعضهم: إن قضاعة من بني حمير، وحمير من بني يعرب بن قحطان «أصل عرب اليمن».

وقال آخرون: إنهم من العدنانية.

ومن قائل «وهو السهيلي»: إن أم قضاعة مات عنها مالك بن حمير وهي حامل، فتزوجها معد، فولدت قضاعة على فراشه ولدًا، ونسب إليه.

وقال ابن دريد في كتابه «الاشتقاق»: إن قضاعة ملك بلاد الشحر، وقبره بها، والمشهور من قضاعة سبعة أحياء: بلى، وجهينة، وكلب، وعذرة، وبهراء، ونهد، وجرم.

نزحت قضاعة عن منازلها في جزيرة العرب على أثر حرب وقعت بينها وبين «ربيعة» والسبب في هذه الحرب أن «خزيمة بن نهد» من قضاعة كان يتعشق «فاطمة بنت يذكر» من ربيعة، فقامت بين الفريقين حروب انتهت بانهزام بني قضاعة، فجلوا عن منازلهم. وفي ذلك قال «عامر بن الظرب» أحد حكماء العرب المشهورين:

---

(١) الأزد وطيئ ومذحج وهمدان وكندة ومراد وأنمار وجذام ولخم وعاملة الأشعريون.

قـضاعة أجلينـا مـن الغـور كلـه ... إلى فلجـأت الـشام تزجـي المواشـيا
لعمري لـئن صـارت شـطيرًا ديارهـا ... لقـد تـأصر الارحـام مـن كـان ناتيـا
ومـا عـن تقـال كـان إخراجنـا لهـم ... ولكـن عقوقًـا مـنهم كـان باديـا
بـما قـدم النهـدي لا در دره ... غـداة تمنـى بـالحرار الأمانيـا

سار فريق منهم «تيم اللات بن سعد ورفيدة بن تور وبعض الأشعريين» نحو البحرين، ثم لحق بهم قوم من الأزد، فصاروا في تنوخ، ثم سار بنو تزيد بن حلوان بن عمرو بن الحاف مع سيدهم عمرو بن مالك، ونزلوا عبقر، وأخذوا يشتغلون بنسج الصوف، فأغار عليهم الترك، وسبوا منهم.

وفي ذلك يقول عمرو بن مالك:

إلا الله ليـــــل لم ننمـــــه ... عـــلى ذات الخـــضاب مجنبينـــا
وليلتنـــا بآمـــد لم ننمهـــا ... كليلتنـــا بميـــا فارقينـــا

فنصرتهم بهراء على الترك، واستردوا ما أخذوه من بني تزيد، وسار «بنو سليح بن عمرو بن الحاف» حتى نزلوا بفلسطين[1] على عاملة، وكان ذلك حوالي سنة ٣٠٠ قبل الهجرة. والله أعلم.

ومن بطون قضاعة التي نزحت بعد حرب ربيعة «ضجعم» فقد سار هؤلاء مع بقية سليح وقبائل أخرى من قضاعة ونزلوا بأطراف الشام.

وأما بنو عاملة الذين نزل عليهم بنو سليح بفلسطين فهم من الشعوب القحطانية، وعاملة هو بن الحارث بن زيد، وزيد بن كهلان.

---

(١) «صبح الأعشى» للقلقشندي و«مذكرة الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي» للأستاذ محمد عبد المطلب.

(هـ) وفي إحدى الخرائط التي أثبتها الأستاذ سميث (G.A.Smith) ذكرٌ لقوم قال عنهم: إنهم احتلوا غربي فلسطين من يافا إلى غزة فجرار «تل جمة» قبل مجيء بني إسرائيل ١٥٠٠-١٢٥٠ ق.م وأسماهم (Kena Kenahhi).

وفي عهد القضاة من بني إسرائيل ١٠٥٠ ق.م عاش في البقعة الواقعة شمالي النقاب وغربي البحر الميت «أي حيث يوجد الآن الظلام والقديرات» قوم يدعون (Jerahmeelites).

وعندي أن هؤلاء هم «جرهم» من بني قحطان.

ومن القبائل التي كانت هنا في ذلك العهد بنو كنانة وكلاب، وقد جاء ذكر بني كنانة (Kenites) في عهد شاءول ١٠٢٠ ق.م أيضًا.

وفي عهد داود وسليمان ١٠١٥-٩٣٠ ق.م كان يقطن البقعة الواقعة بين تل الملح وعرعرة قوم أسماهم سميث (Calebites) وعندي أنهم «بنو كلب»[١].

(و) وما سميت غزة «حمراء اليمن» إلا لكثرة العرب الحميريين فيها.

ولما جاء الإسكندر إلى غزة وحاصرها ٣٣٢ ق.م كانت حاميتها عربًا فقاومته أشد المقاومة، وفي «الخطط» أن العرب سكنوا بلاد الشام قبل الإسلام بنحو ألفين وخمسمائة عام.

٦- وما كاد صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم يجاهر بالدعوة لاعتناق الدين الإسلامي حتى انخرط قسم كبير من العرب تحت رايته، ثم دبت الحياة في نفوسهم فتاقوا للخروج من الجزيرة، وخرجوا ولكن كفاتحين في هذه المرة. وما هي إلا

---

(١) وهذا يوافق ما ذكره القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» نقلا عن صاحب حماة عن منازل بني كلب.

سنوات معدودات حتى أخذت رايتهم تخفق في سماء فلسطين والشام والعراق وفارس، ولأول مرة بعد زوال حكم «ملوك الرعاة» و«الأنباط».

دخلت ديرة السبع أيضًا تحت حكم عربي صميم، وكان ذلك في زمن خلافة عمر بن الخطاب يوم فتح عمرو بن العاص هذه البلاد، وأمَّ مصر يبغي الاستيلاء عليها فتم له ما أراد ٦٤٠ ق.م.

قال الحمداني: إن أول من سكن مصر من العرب حين جاءوا في الفتح مع عمرو بن العاص «بنو جذام»[١] وأقطعوا فيها بلادًا بعضها بأيديهم حتى الآن.

وقد قرأت في «النجوم الزاهرة» تأليف «جمال الدين أبي المحاسن» طبع في القاهرة سنة ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م ما يأتي: أن عمرو بن العاص خلا بعمر بن الخطاب في قرية «الجابية» من أعمال دمشق وظل يحثه على فتح مصر إلى أن لان وعقد له أربعة ألاف[٢] رجل كلهم من «عك»، وعك بلد في اليمن.

ولم يأت في الفتوحات الإسلامية ذكرٌ لأية بقعة من بقاع السبع الحالية خلا «السبع» نفسها فقد قيل: إنها كانت ملكا لعمرو بن العاص[٣] أقام به لما اعتزل الناس، وأن عبد الله بن عمرو بن العاص مات فيها[٤]؛ وقيل: إن عمرو بن العاص خرج من المدينة.وهو محتقد على عثمان بن عفان، وأنه انتهى إلى أرض له بفلسطين يقال لها السبع، فنزل في قصر له يقال له «العجلان» وظل هناك حتى قتل عثمان[٥].

---

(١) بنو عقبة بديار السبع، وبنو مهدي بالبلقاء، وبنو زهير بالشوبك، وبنو صخر بالكرك، وبنو سعيد بصرخد وحوران، وغيرهم كلهم من «بني جذام».

(٢) وعلى قول ثلاثة آلاف وخمسمائة.

(٣) « معجم البلدان » لياقوت الحموي و«معجم ما استعجم» للوزير البكري.

(٤) وعلى قول: أنه مات بمكة سنة ٧٣ للهجرة.

(٥) «تاريخ الطبري» لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري.

٧- وقد ظلت هذه البلاد في حكم الخلفاء الراشدين في الحجاز حتى قتل الإمام علي كرم الله وجهه سنة ٤٠ هـ/ ٦٦٠م.

تنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية في الشام سنة ٤١هـ/ ٦٦١م.

وسواء أديرت من الحجاز أو من الشام فقد هبط خلال هذه الفترة من الزمن التي انقضت بين خلافة عمر بن الخطاب وبين تأسيس الدولة الأموية في الشام فوجٌ جديد من العرب ديار السبع الحالية. وكونوا فيها -بالاشتراك مع الطلائع الذين سبقوهم قبل الإسلام بقصد الكلاء والتجارة- كيانًا عربيًّا هو الذي نراه فيها في الوقت الحاضر.

٨- وكما أن مصر وسوريا كانتا في الأزمنة الغابرة في حالة جزر ومد فقد ظلتا كذلك بعد الإسلام أيضًا؛ إذ لم تنقطع الغارات من الجهة الواحدة ضد الأخرى.

وفي كل غزوة أو غارة -مهما كبر شأنها أو ضؤل- كان لا مناص للغزاة أو المغيرين من أن يجتازوا قسمًا -قل أو كثر- من السهول والآكام والتلول والوديان التي تؤلف ديرة السبع في الوقت الحاضر.

وعلى هذا المنوال تكون هذه البلاد قد انتقلت تباعًا من حكم الخلفاء الراشدين في خلافة عمر بن الخطاب ١٣هـ/ ٦٣٤م.

إلى حكم الأمويين في زمن معاوية بن أبي سفيان ٤١هـ/ ٦٦١م ومروان الحكم ٦٥هـ/ ٦٨٤م ومروان بن محمد الملقب بالحمار ١٢٧هـ/ ٧٤٤م.

إلى حكم العباسيين في زمن أبي العباس الملقب بالسفاح ١٣٢هـ/ ٨٤٧م والمهتدي بن الواثق ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م، والمعتمد على الله ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م.

إلى الدولة الطولونية في زمن أحمد بن طولون ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م، وخمارويه بن أحمد ٢٧٠هـ/ ٨٨٤م.

إلى الدولة الإخشيدية في زمن محمد الإخشيد ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م، وأنوجور بن الإخشيد ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م، وكافور الإخشيدي ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م.

إلى الدولة الفاطمية ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م.

إلى دولة الأرتقين في زمن أرتق بن أكسك ٤٨٤هـ/ ١٠٩٥م.

فالدولة الأيوبية في زمن صلاح الدين الأيوبي ٥٦٧هـ/ ١١٧١م؛ فدولة المماليك ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م.

إلى أن دخلت في حكم الأتراك العثمانيين، وكان ذلك في أيام السلطان سليم الذي حارب المماليك وغلبهم في موقعة كبيرة جرت بينه وبينهم بالقرب من غزة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م.

obeikandl.com

الفصل السادس عشر
في
الصليبيين

١- كانت القدس في حكم الخليفة الفاطمي المستعلي منذ استخلصها من الأرتقيين، فحاصرها الصليبيون وفتحوها عنوة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م، ثم سارو لفتح مصر، ولكنهم ارتدوا على أعقابهم عند أسوار عسقلان تجاه الجند الذين أرسلهم أمير الجيش تحت قيادة «سعد الدولة».

٢- ثم عادوا فجهزوا حملة أخرى لافتتاحها في أواخر سنة ٥١١هـ/ ١١١٨م إذ خرج بردويل ملك الصليبيين من بيت المقدس واستولى على الفرما، فذبح أهلها ولكنه مات قبل أن يدرك العريش، وبموته نجت مصر من فتح الصليبيين.

٣- ثم عادوا فحاصروا عسقلان سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٥م وكانت آنئذ من أعمال الفاطميين، وتم لهم النصر عليها وعلى جميع الشواطئ بسبب انهماك الخليفة «الظافر بن الحافظ» بشهواته في مصر، والقائد الظافر في هذه الفتوحات كان بلدوين الثالث (Balduin III).

٤- وكانت مصر قد انحطت في أيام الخليفة «الفائز بنصر الله» إلى مهاوي الضعف سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٢م، حتى إنه كان يؤدي الأموال الطائلة ترضية للصليبيين في بيت المقدس؛ ليتوقفوا عن الغزو من جهة عسقلان وغزة، ولكنهم بعد حين اجتازوا الحدود ودخلوا مصر، وكان لهم فيها شئون لا محل لذكرها هنا. فأرسل الخليفة «العاضد» يستنجد بنور الدين فأنجده هذا. وأنقذه من شرهم.

٥- وفي سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٣م جرد صلاح الدين الأيوبي حملة على سوريا،

فدخل فلسطين، وافتتح غزة، ثم رجع إلى مصر، وبعدئذ سمع أن الصليبيين فتحوا أيلة «العقبة» فنشط إليها عن طريق سينا والقصيمة ١١٨٢م وحاصرها برًّا وبحرًا حتى افتتحها، ثم رجع إلى القاهرة.

واكتسب صلاح الدين نفوذًا كبيرًا في مصر حتى لم يبقَ للخليفة العاضد سوى السلطة الدينية، وبعد حين مات العاضد، وانتهت بموته الدولة الفاطمية، وأخذ الخطباء يذكرون الخليفة العباسي «المستضيء بالله» على المنابر.

٦- أن أول عمل قام به صلاح الدين، بعد أن تم له النصر على الصليبيين في غزة وفي أيلة- أن أمر بذكر الخليفة العباسي «المستضيء بالله» على المنابر، وعمله هذا كان نهاية دولة الفاطميين.

ولما اتصل الأمر ببغداد أصبح خليفتها منفردًا بالخلافة على سائر الشرق، وتحولت الأنظار كلها إلى بغداد، وتولى «أتابك نور الدين» أمر سوريا ومصر معًا بمشارفة الخليفة العباسي في بغداد، وظل صلاح الدين في مصر.

وبموت نور الدين تولى الحكم ابنه الملك الصالح إسماعيل، ثم استولى صلاح الدين على الملك في مصر وسوريا، فأصبح الصليبيون أعداءه مباشرة.

رجع هو إلى مصر، وأبقى أخاه «طوران شاه» على دمشق ٥٧٢هـ/ ١١٧٩م.

٧- وفي سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٥م حمل على سوريا بناء على ما اتصل به من أن أمراء الموصل اتفقوا مع الصليبيين فأسرع إليها، وكان له فيها نصر مبين.

٨- وفي سنة ٥٨٣هـ/ ١١٩١م التقى بالصليبيين في موقعة حطين بالقرب من طبرية وهزمهم.

ثم ضبط طبرية وعكا واستولى على نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة

وصيدا وبيروت وجبيل، ثم توجه نحو الجنوب فضبط الرملة والدارون وعسقلان وغزة وبيت جبرين والتبرون وبيت المقدس «وقد حاصرها حصارًا شديدًا» ثم سار شمالا ففتح صور وحصن كوكب ودمشق وجبلة واللاذقية وصهيون وأنطاكية وحلب وحماة وتلك الأصقاع.

٩- ولقد جرى بينه وبين الصليبيين قتال ومعارك كثيرة لا محل لذكرها هنا، وحرق عسقلان واللد والرملة خوفًا من وقوعها في أيديهم.

ولم تضع الحرب أوزارها إلا وقد تم لصلاح الدين امتلاك سوريا وفلسطين وشرق الأردن ومصر كلها.

١٠- وقد احتل قسمًا من ديرة السبع الحالية زعيم المجر والنمسويين أندرو (Andrew) ١٢١٨-١٢٢١ للميلاد أثناء تعرضه على مصر، كما احتلها أيضًا القائد الفرنسي سان لويز (St.Louis) ١٢٤٨-١٢٥٤م لنفس الغرض.

١١- تلك وقائع وإن لم يرد ذكر مباشر لبئر السبع فيها إلا أننا أحببنا تثبيتها هنا لنثبت كيف كانت ديرة السبع في ذلك العهد -كما في العهود الأخرى التي سبقته- تتناوب الخضوع للقوى المسيطرة والموجات البشرية المتدفقة من سوريا إلى مصر، ومن مصر إلى سوريا؛ ثم لنرى مبلغ تأثير الصليبيين في هذه البلاد.

١٢- ولكم كان بودي أن أعلم كيف كان موقف عربان هذه البلاد حيال الصليبيين فلم أعثر بين الآثار التي استنطقتها والكتب التي تصفحتها إلا على الروايتين التاليتين:

(أ) اتخذ ريكاردوس قلب الأسد موقع «تل الحسى» و«وادي قصابة» قاعدة حربية مرتين: مرة عندما عبر وادي الحسى أثناء مجيئه من السهل الغربي، وأخرى عندما هبط الجنوب ليقطع الطريق على قافلة تجارية كبيرة كانت آتية من مصر.

ومن هذا يفهم أن الصليبيين عرفوا هذا المكان، وكانوا يدعونه Onnetum Esturnellorum وعندما جاءوا «بيت جبرين» ظنوا أنها بئر السبع.

(ب) ذكر بروتس H.Prutz في كتابه Kulturgeschiehte der Kreuzzuge[1] أن بضعة أفراد من قبائل البدو اتفقوا مع أصحاب الأراضي من الصليبيين على أن يرعوا مواشيهم «البدو» في أراضيهم «الصليبيين» تلقاء مبالغ معينة من المال، وأن هؤلاء الأفراد كانوا مثابة مال الملك وينبوع ثروته الخاصة، حتى إن الملك بلدوين الثالث أهدى عام ١١٦٠م المستشفى ستين خيمة.

ومعنى ذلك أنه أهداه ستين أسرة بدوية، على أن يتصرف بها وبأفرادها كما يشاء.

ولقد نصت الوثيقة الخطية التي عثر عليها بروتس أن هذا الملك أهدى طائفته ثماني عشائر من البدو مع مائة وثلاثة بيوت من الشعر، وأن هذه العشائر كانت حتى ذلك الحين بعيدة عن تناول النصرانية ونفوذها؛ فكانت ترغم على أن تكون ملكا (؟) من أملاك الطائفة بمجرد اجتيازها حدود المنطقة.

وفي بعض المناطق كانت المبالغ التي يدفعها البدو إلى أصحاب الأملاك الكبيرة تلقاء رعي مواشيهم في أراضيهم كبيرة جدًّا.

١٣- ومن المسائل الجديرة بالدرس والتي أظن أن لها صلة بالحملات الصليبية المتقدم ذكرها ما أقصه عليك في الأسطر التالية:

هناك فئة من العربان يدعون «القديرات» وسمهم الصليب + وفيهم جماعة تدعى «الصلبة» ملامح أبدانهم تدل على أنهم -أو جلهم- من بقايا الصليبيين.

---

(١) طبع في برلين سنة ١٨٨٣م.

وهنا لا بد لي من تدوين بعض المشاهدات التي عثرت عليها أثناء تجوالي بين العربان:

وهي أنني رأيت كثيرين منهم يستعملون الجرس يوم تلد الأم ولدها، ويقولون: أنهم إنما يفعلون ذلك ليطردوا عن الطفل طيرًا يسمونه «الكندرة»، ثم أن البعض منهم يؤثر استعمال السكين ذات المسامير الثلاثة على استعمال السكين ذات المسمار الواحد، ولما سألتهم عن سبب ذلك لم يتمكنوا من الإجابة.

ولما يأتهم ضيف عزيز، ويذبحون له شاة ليأكل منها- يخضبون يدهم بدمها، ويرسمون به شارة الصليب على ظهر الدابة التي ركبها، وهذه الشارة نفسها يرسمونها على بيت الشعر وفوق المرأة التي وضعت حملها حديثًا.

لا أستطيع أن أميز مَن مِن العربان ألف هذه العادات، ومن منهم لم يألفها، أو من منهم ألفها زمنًا ثم تركها كرهًا لاعتقاده بأنها تبعده عن معتقده الإسلامي.

ذلك لأنهم كلهم يمقتون أن يسمعوا بأنهم يمتون بأية صلة إلى النصرانية، ولا يرغبون في خوض هذا البحث مطلقا.

وإني لا أستطيع أن أجزم فيما إذا كانت هذه الشارات من بقايا الصليبيين، أم أنها من بقايا العهد الواقع بين العصر الرابع والسادس للميلاد يوم كانت النصرانية منتشرة في هذه البلاد وفي جميع أنحاء سوريا.

obeikandl.com

الفصل السابع عشر

في

الاتراك

١- تغلب السلطان سليم الملقب «بياووز» على المماليك في مرج دابق بالقرب من «حلب» وقهر سلطانهم قنسو الغوري ١٥٠١م فمات هذا تحت أرجل الخيل، ولم تجدِ محاولة طومان باي الذي استلم قيادة المماليك بعدئذ في مصر نفعًا؛ إذ انكسرت حملته التي جهزها لمقاومة العثمانيين فسار هؤلاء من مرج دابق إلى غزة فافتتحوها عنوة، ثم إلى العريش فمصر ١٥١٧م، ودانت لهم هذه البلاد من أقصاها إلى أقصاها.

٢- وفي ١٧٩٩ للميلاد دخلت هذه البلاد في حكم نابليون بونابرت يوم احتل هذا مصر ومشى يطلب تدويخ فلسطين، لكنها لم تبقَ في حكمه أكثر من سنة فاستردها الأتراك وكان ذلك في زمن السلطان سليم الثالث.

وإليك نبذة من تاريخ ذلك العهد:

عندما احتل بونابرت مصر ١٧٩٨م واغتصبها من أيدي سلاطين آل عثمان أرسل هؤلاء أمرًا إلى أحمد باشا الجزار والي عكا يرسل جيشًا لاحتلال العريش، ففعل، وأنذره بونابرت بالتخلي عنها لأنها من حدود مصر، فأبى، وقام بونابرت على أثر ذلك لا ليدافع عن مصر فحسب بل ليفتح سوريا أيضًا. وأعد حملة من اثني عشر ألف مقاتل دخل بها العريش ١٧٩٩م، ثم سار إلى غزة واستولى عليها بغير قتال، ثم افتتح الرملة واللد ويافا وصفد وصور وطبريا.

ولكن مساعيه في فتح عكا حبطت، وبحبوطها فشلت حملته السورية فارتد إلى

مصر بكل رجاله وفيهم الجرحى، فقاسوا عذابًا مرًّا من العطش، وفشى فيهم الوباء فزادهم عناء، فأمر بونابرت أن يسير الرجال الأصحاء على أقدامهم، وأن تعد الخيل والجمال للمرضى والجرحى.

وزادهم شقاء أن العمارة الإنكليزية كانت تتعقبهم في البحر، والعربان يتعرضون لهم في البر، والجنود العثمانية تسوقهم من وراءهم.

أما هم فكانوا يخربون كل ما يمرون به من المدن والقرى حتى وصلوا إلى العريش، ومن هناك رجعوا إلى مصر.

ومن الوثائق التي وجدت بين أوراق نابليون والتي تبحث عن حروبه في سينا- وثيقة عن عَرب سينا وهذه الجهات، وقد جاء فيها: إن عشائر بلى والصوالحة والترابين يمكن الوثوق بهم، وأما الحويطات والعيايدة فلا؛ إذ إنهم خائنون، ويجب اعتبارهم أعداء.

٣- وفي عهد السلطان محمود الثاني شق محمد علي باشا والي مصر في ذلك الحين عصا الطاعة، واتخذ خلافه مع عبد الله باشا والي عكا حجة فرمى إلى احتلال سوريا، وأرسل جيشًا بقيادة ابنه إبراهيم باشا فسار هذا ١٨٣١م بطريق العريش والسبع وغزة، وظل يتوغل في البلاد إلى أن فتح عكا، وامتلك الشام، ودان له قسم غير قليل من بر الأناضول، وكاد يتهدد الآستانة فتداخلت الدول وجرت وقائع لا محل لذكرها هنا، انتهت بانسحابه واكتفى مؤسس الدولة العلوية بمصر له ولذريته من بعده.

ويظهر أن السواد الأعظم من عربان بئر السبع كان أميل إلى الأتراك منه إلى إبراهيم باشا وأبيه محمد علي؛ إذ إنهم قاوموه في حروبه هذه مقاومة عنيفة حتى اضطر إلى إيذائهم، والتنكيل بهم كما مر عنك في تاريخ الجبارات.

ولما رجع إلى مصر انتقموا لأنفسهم منه ونهبوا محطات البريد، وأتوا بأعمال يستدل منها أنهم لم يأسفوا لزوال سلطته من بين ظهرانيهم.

٤- ظلت هذه البلاد تحت سيطرة الأتراك حتى سنة ١٩١٧م ولكنها سيطرة اسمية لا فعلية؛ إذ إن نفوذهم على العربان كان ضئيلا.

وقد كانوا مقتنعين بالضريبة المقطوعة التي كان يدفعها لهم مشايخ العربان القاطنين في هذه البلاد، وأما المشايخ فهم الحكام الحقيقيون: الأمر كله، والنهي كله بأيديهم.

وهم وإن كانوا في ذلك الحين قليلي العدد، لكنهم كانوا واسعي النفوذ، يروحون ويغدون بعشائرهم كيفما شاءوا وشاءت أهواؤهم، ويغزو بعضهم بعضًا كلما آنسوا في نفوسهم المقدرة على الطعن والنزال.

وفي خلال هذه الفوضى وقعت الحروب الأهلية والغارات العشائرية التي أتينا على ذكرها في فصل الحروب.

ولم يسيطر الأتراك سيطرة فعلية على العربان إلا بتاريخ ١٣٠٧ شرقي ١٨٩٠م يوم قام رستم باشا القائد التركي المعروف «بأبي جريدة»[1] بحملته التأديبية على أثر تفاقم الحروب العشائرية ولا سيما تلك التي وقعت بين العزازمة والترابين، وحط رحاله وجنوده في «غزة»، وأخذ يستعمل الضرب والتهديد وكل ما بيده من وسائط الضغط والإرهاب وسجن عددًا غير قليل من المشايخ.

وقد أقام الأتراك بعدئذ ١٨٩٤م مخفرًا صغيرًا في «قلعة الجهير» ثم رأوا أن

---

(١) راجع ما كتبناه عنه في هذا الكتاب.

الحاجة ماسة لفصل العربان عن غزة فصلا تامًّا ففصلوهم[١] وأنشئوا لهم قضاءً إداريًّا جديدًا أسموه «قضاء بئر السبع» وجعلوا موقع المدينة الحالي مقرًّا لهذا القضاء، وكان ذلك عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠٠م.

وعلى قول: إن الحكومة اتخذت حرب العزازمة والترابين حجة لتبرير موقفها، إذ إنها كانت تنوي أن تؤسس مركزًا إداريًّا بالقرب من التخوم المصرية بسبب المفاوضات التي كانت تجري آنئذ بينها وبين الإنكليز من أجل الحدود.

وقد حدثني مفتي بئر السبع الشيخ سليم أفندي بسيسو أن الأتراك كانوا يرمون بعملهم هذا إلى تحضير العربان من جهة، وأبعادهم عن غزة من جهة أخرى.

وأني أرى أن الأتراك قد أحسنوا صنعا في انتخابهم موقع السبع الحالي قاعدة للقضاء لا من حيث أهميته التاريخية بل لكثرة[٢] المياه العذبة فيه ولوجوده على الحد بين أراضي العزازمة من الجنوب والتياها من الشرق والترابين من الغرب.

الجندرمة التركية

(أول درك نظامي أقيم في بئر السبع في العهد التركي)

(١) لقد تم هذا الفصل في عهد متصرف القدس «توفيق بك» أحد رجال «المابين».

(٢) بالنسبة للمواضع الأخرى.

٥- أن أول قائمقام عهد إليه بإدارة بئر السبع، بعد فصلها عن غزة، كان «إسماعيل كمال بك» وهو تركي الأصل فسكن هذا الخيام واتخذها في الوقت نفسه مقرًّا لإدارة أعماله.

وقد زودته الحكومة بكوكبة من الشرطة وأخرى من الدرك (انظر إلى الصورة في الصفحة التالية) لأجل صون الأمن، ووضعت هذه القوى تحت إمرة ضابط ألباني اسمه «زبير أفندي» ولكن الرجل الذي سيطر على العربان أكثر من أي إنسان في ذلك الزمان هو الشاويش «مصطفى أفندي زين الله الأرناءوط»[١] وهو الثالث إلى اليسار في الصورة، وكان هناك قاض تركي اسمه «شكري أفندي» وهو أول من قضى بالشرع في ذلك العهد.

٦- ثم تولى إدارة القضاء محمد أفندي جار الله، فتم على يده إصلاحات كثيرة منها تأليف مجلسين: واحد للإدارة[٢] وآخر للأمور البلدية[٣].

وابتاعت الحكومة في عهده ألفي دونم[٤] من أراضي العزازمة وأوهبتها إلى البلدية، على أن تبيع هذه منها إلى من شاء التوطن من البدو دونمًا واحدًا من غير عوض على شريطة أن يبني فوقه دارًا للسكن ويسكنها.

---

(١) إنه ليخال إليك والبدو يحدثونك عن الأناءوط هذا، أنهم يحدثونك عن «أبي زيد» وأبطال «بني هلال».

(٢) إن المجلس الإداري الأول كان مؤلفًا من الشيخ محمد الصانع «عن القديرات» والشيخ حرب الدقس «عن الجبارات» والشيخ مسلم أبو شنان «عن العزازمة» والشيخ حمدان أبو حجاج «عن الحناجرة» والشيخ واكد الوحيدي «عن الترابين».

(٣) إن المجلس البلدي الأول كان مؤلفًا من الشيخ حماد الصوفي «عن الترابين رئيسًا» وعودة أبي قبيلة «عن العزازمة» وسلام أبي زكرى «عن الحناجرة» والحاج حسين أبي عبدون «عن التياها» وسليمان بن رفيع «عن الجبارات» أعضاء. وكانت موازنة المجلس البلدي آنئذ لا تزيد عن عشرة جنيهات فأصبحت اليوم ألفين إلا قليلًا.

(٤) سعر الدونم ريال مجيدي.

وقد أنشأت دارًا لها اتخذتها مقرًّا لأعمالها، كما أنشاءت قشلاقًا للجنود، ورسمت خارطة للمدينة الجديدة على الطراز الحديث[١]، فقسمتها إلى بقع متساوية، يفصل البقعة عن البقعة شارع فسيح.

٧- وقد تولى الإدارة بعد محمد أفندي جار الله توفيق بك الغصين «وكيلا» ثم جاء حمدي بك، فتوفيق أفندي عبد الهادي، فسليم أفندي طهبوب «وكيلا»، فآصف بك الدمشقي ١٩٠٤م، ففريد أفندي العمري، وكانت السنون تمر سراعًا وبئر السبع في تقدم وازدياد، فرأى الأتراك أن يرفعوها درجة فجعلوها مركزًا لنائب المتصرف عبد الكريم بك وكان هذا يعمل تحت إمرة متصرف القدس رشيد بك.

أكرم بك يوزع الثياب والمصاحف على العربان

٨- ويظهر أن سلطة الحكومة كانت في أواخر الدور الحميدي[٢] ضعيفة وأنه

---

(١) المهندسان اللذان قاما بهذا العمل هما «سعيد أفندي النشاشيبي» ومساعده «راغب أفندي النشاشيبي» هو راغب بك رئيس بلدية القدس في يومنا هذا.

(٢) نسبة إلى «السلطان عبد الحميد الثاني» الذي اشتهر بالاستبداد والحكم المطلق وقد خلع عن العرش في ١٠ تموز ١٣٢٤ ١٩٠٨م.

كان لا بد لها من الاستناد إلى سلطة المشايخ أنفسهم، فرأى متصرف القدس «أكرم بك»[1] أن يتقرب إلى العربان بالهدايا والأوسمة (انظر إلى الصورة في الصفحة السابقة) وقد احتفل بطهور أبناء المشايخ احتفالا كان على جانب عظيم من الرونق والبهاء فمدت الأسمطة (انظر إلى الصورة في هذا الوجه) ونزلت الجياد العربية تتسابق في الميدان.

٩- ولما أعلن الدستور في تركيا وصار فيها ما صار من انقلاب ١٩٠٨م أرجعت التشكيلات الأولى فأسمت بئر السبع قائمقامية كما كانت من قبل، وعهد بإدارتها إلى القائمقام علي آصف أفندي التركي، ثم إلى محمود نديم بك، فعرفان بك الجابي، فخالد بك، فكامل أفندي البديري «وكيلا» فحسام الدين بك، فصادق بك المغربي، وكان هذا آخر قائمقام مثل الأتراك في هذه الديار، وظلت بئر السبع تحت إدارته حتى الاحتلال الإنكليزي.

وليمة حكومية (١٩٠٧)

(١) ابن «نامق كمال بك» الكاتب التركي الشهير.

١٠- هذا ولا بد لنا من أن نفرد فصلا خاصًا للمشاريع العمرانية التي قام بها ذلك الرجل المصلح الكبير «آصف بك الدمشقي»؛ إذ قد ازدادت السبع في حكمه عمرانا ورونقًا، فأقام بناء دار البلدية التي اتخذت بعدئذ منزلا لقائمي المقام، ووضع وابورًا لجر الماء من بئر النشل وحوضًا تجري المياه إليه كي توزع إلى أطراف البلد، ثم أنشأ مطحنة، وجامعًا أتى بحجارة مأذنته من خربة الخلصة وهو غاية في الإتقان من الوجهة الهندسية، كما أنه غرس عددًا كبيرًا من الأشجار، وأنشأ سلكا للمخابرات البرقية ودارًا للبريد، ومدرسة لأبناء البدو، وهي أول مدرسة أنشئت هنا.

وفي زمنه أرسل عدد من البدو إلى «مدرسة العشائر» في استانبول.

١١- ولما نودي في تركيا بالنفير العام ١٩١٤م ووقف الأتراك إلى جانب حلفائهم الألمان- كان من الطبيعي أن يولوا وجوههم شطر «قناة السويس» إذ لم يكن لفتح مصر كما كانوا يذيعون؛ فلإرغام الإنكليز على رصد قسم كبير من قواهم البرية والبحرية في هذه الجبهة ليخففوا من ضغطهم في ميادين القتال الأخرى.

وقد حشدوا لهذه الغاية جيشًا وضعوه تحت إمرة القائد التركي «جمال باشا الكبير»[1] (انظر إلى الصورة).

---

(١) سمي كذلك لا لأنه حقًّا كان كبيرًا وإنما للتمييز بينه وبين «جمال باشا» قائد الفيلق الثامن الذي كان تابعًا له. ولقد منح جمال باشا الكبير سلطة لا حد لها في سوريا وفلسطين، فسعى لإخماد النهضة العربية، وشنق عددًا كبيرًا من رجالات العرب وشبانهم الأحرار، وطغى حتى أطلق عليه لقب «الطاغية» و«السفاح».

جمال باشا الكبير

لقد اختلفت فيما إذا كان الأتراك حقًّا يرمون إلى عبور قناة السويس واحتلال مصر أم إنهم كانوا يقصدون إشغال الإنكليز في تلك الجبهة وإرغامهم على رصد قسم كبير من قواهم هناك ليحولوا دون إرسال تلك القوى إلى فرنسا وغاليبولي، وإلى ساحات الوغي الأخرى، ولكن الأكثرية الساحقة تميل إلى الأخذ بالرأي الثاني.

ومهما كانت غاية الأتراك من تلك الحملة فإن الخبراء يستخطئون إقدامهم عليها دون أن يعدوا لها ما تفتقر إليه الحملات الحربية مثل هذه الأقاليم من عدة وعدد.

نعم، إن أكثر الغزاة الفاتحين الذين جاءوا إلى مصر من سوريا أو من هذه إلى تلك عبروا الطريق التي عبرها الأتراك في هذه الحملة، ولكن الفرق بين اليوم

والأمس كبير من حيث اجتياز الصحراء.

وأهم هذه الوسائل سهولة الطريق؛ فإن الرمال التي تغطي الشطر الأكبر من صحراء سينا لم تكن بالأمس من الكثافة والخطورة التي هي عليها اليوم، ولولا ذلك ما تمكن أولئك الغزاة والفاتحون من اجتياز الصحراء.

فإذا أضفنا إلى ما تقدم قلة الوسائل الفنية التي بيد الأتراك وتسرعهم في اجتياز الصحراء ومحاولتهم عبور القناة قبل أن يعدوا للأمر عدته- أيقنا أن ما أصابهم من انكسار لم يكن من الأمور المستغربة.

ويظهر أن الأتراك قد انتبهوا إلى خطئهم هذا، فقاموا بتهيئة الوسائل اللازمة لإنجاح هذه الحملة، ولكن انتباههم هذا جاء متأخرًا، هذا فضلا عن أن الأعمال التي قاموا بها -وان أتت على غاية من الإتقان إلا أنها- كلفتهم نفقات كثيرة ووقتًا طويلا.

ولقد عبَّدوا الطرق بين السبع والخليل (انظر إلى الصورة) من جهة وبين هذه والحفير من جهة أخرى، وأنشئوا خطًّا حديديًّا يجيء من وادي الصرار إلى بئر السبع (انظر إلى الصورة) ولقد اهتموا بمدينة السبع نفسها وأضاءوها بالكهرباء وأسسوا فيها الجنائن والبساتين وأكملوا بناء المدرسة الحالي فجعلوه مستشفى لجرحاهم.

الأتراك يعبرون طريق السبع – الخضر

أول قاطرة وصلت بئر السبع

١٢- ولقد حث الأتراك العربان على التطوع تشرين أول ١٩١٤م، فتطوع منهم نحو ألف وأربعمائة رجل بين فارس وهجان اشتركوا كلهم في الحملة التي سيقت لافتتاح مصر والتي أسموها «حرب الترعة» أو «جردة القنال».

وقد كان من شروط هذا الاشتراك أن يتقدم البدوي بنفسه ودابته فقط، وأن تزوده الحكومة بكل ما يفتقر إليه من معدات القتال كالبندقية، والسيف، والمؤنة، وعلف الدابة وما إلى ذلك.

والذي قام بحثهم وجمعهم وتنظيم صفوفهم هو «ممتاز بك» أحد رجال الجيش التركي ومرافق أنور باشا وزير الحربية.

انتظم المتطوعون من البدو في أربع فرق:

فرقة الترابين والحناجرة: ومن شيوخها حماد الصوفي، وسليم الزريعي، وسليمان أبو ستة، وعلي أبو عويلي، وعرار الوحيدي، وحماد الصانع، ومنصور أبو صعيليك،

وحماد أبو شباب، وجميعان بن جرمي، وعبد ربه أبو عيادة.

وفرقة التياها: ومن شيوخها حسن الهزيل، وسلامة أبو شنار، والحاج حسن أبو عبدون، وإبراهيم أبو رقيق، وعبد الكريم الصانع، وسالم أبو ربيعة، ودياب الطعاونة.

وفرقة العزازمة: ومن شيوخها مسلم بن سعيد، وسليمان بن جخيدم، وفريج بن حمد، ومسلم بن خضيرة.

وفرقة الجبارات: ومن شيوخها مسعود الوحيدي، وجرب الدقس، ونمر أبو العدوس.

ومع كل فرقة ضابط من ضباط الجيش المدربين على أنظمة الحرب.

تجمعت الفرقة الأولى على ضفاف الشلالة، والثانية حول مقام أبي هريرة، والثالثة في الخلصة، والرابعة بالقرب من وادي الحسى.

ثم التقى الجمع في «خان يونس» وساروا معًا بقيادة ممتاز بك حتى نزلوا «العريش»، وهناك عهد بقيادة العربان كلهم إلى «حماد باشا الصوفي»، وقيل لهم: إن كل ما يغتنمونه في الحرب هو لهم إلا المدافع والرشاشات فإنها للدولة[1].

١٣ - سار المتطوعون من العريش إلى المزار، فبئر العبد، وقطية من غير حرب، وفي قطية كانت الواقعة الأولى ١٥ تشرين ثاني ١٩١٤م؛ إذ اصطدموا بكوكبتين من الأعداء:

واحدة من الهنود وأخرى من السودانيين، وقد كانت كل واحدة مؤلفة من

---

(١) وعلى قول: إن هذا اللقب لم يعطه رسميًّا وإنما أطلق عليه عفوًا. ليس له موضع في الأصل.

خمسة وأربعين هجانًا «مراديف»[١].

وقد عقد النصر للبدو في هذه الموقعة؛ إذ ذبحوا الهنود كلهم وأسروا السودانيين عن بكرة أبيهم.

ولم يقتل منهم سوى خمسة رجال[٢] وقد غنموا الشيء الكثير من الإبل والأسلحة والذخائر.

ولقد أشيع بعد هذه المعركة أن الإنكليز أنزلوا عددًا كبيرًا من جنود بوارجهم إلى البر، فخشي العربان أن يقطع هؤلاء عليهم خطِ الرجعة فرجعوا إلى بئر العبد، ثم إلى المزار، فالعريش، وبينا كانوا في العريش يتدبرون أمرهم أخذت بوارج الإنكليز تصب عليهم وعلى العريش قنابلها، فلم يصابوا هم بأذى، وإنما أصيبت العريش بضرر فادح.

لم يمضِ على ذلك يوم أو بعض يوم حتى جاء الجيش النظامي للترك، ونزل إلى الميدان. فسار الكل معا إلى «الرتمة» وهناك حطوا رحالهم في موقع يدعى «حبوه» وعلى ماء يقال له «الدويدار».

١٤- ظن الإنكليز في بادئ الأمر أن أعمال الأتراك لم تكن سوى مظاهرات حربية، وأنهم لن يقدموا على اجتياز الصحراء لفقدان المياه وقلة الوسائط النقلية، ولكنهم رأوا بعد مدة وجيزة أنهم مخطئون في تقديرهم؛ إذ شرع هؤلاء في الزحف على القناة بتاريخ ١٣ كانون الثاني ١٩١٤م، ووصلت قوة كبيرة منهم إلى القصيمة والنخل والعريش، وسارت قوة أخرى نحو الإسماعيلية بمدافع ثقيلة نقلت على ظهور الثيران.

---

(١) أي رجلان مسلحان على ظهر كل هجين أحدهما ناظر إلى الأمام والثاني إلى الوراء.

(٢) سليمان أبو ستة، وسليمان بن بطيخ، وسالم الظلامي، وأبو راشد، وأبو خليل القلاعي.

١٥- وقد حمل الأتراك على الإنكليز المرابطين في الترعة حملة صادقة في ليلة ٢ شباط، وكادوا يعبرون الترعة لولا أن الإنكليز قاوموهم مقاومة عنيفة، ففشلوا وكذلك كان أمرهم في اليوم التالي، وقد خسروا في هاتين الموقعتين ٦٠ جنديًّا قتيلا و٣٠٠ أسيرًا.

فارتدوا على أعقابهم، وارتد العربان معهم، ولم يعد هؤلاء يشتركون في أية حرب منظمة بعد تلك الموقعة.

التأهب لحرب الترعة

١٦- أخذ الأتراك يستعدون لحملة أكبر من الأولى (انظر إلى الصورة)، وأنشئوا المحطات، ومدوا خطًّا حديديًّا بين بئر السبع والعوجا والقصيمة، ومدوا الأنابيب في جوف الأرض لجر الماء (انظر إلى الصورة) وأقاموا الجسور في أنحاء مختلفة (انظر إلى الصورة).

مر الماء

مسر الشريعة

إن هذه الأعمال تمت في بحر سنتين وكانت من المتانة والإتقان بدرجة تدعو إلى الإعجاب، إلا أن الخبيرين بفنون الحرب يستخطئون -كما قدمنا- الأتراك لهذه الأعمال التي قام بالشطر الأكبر منها مهندسون من الألمان والتي أشغلتهم زمنًا طويلا.

وقد كانت حاجة الحرب تدعو إلى الإسراع قبل أن يتمكن الإنكليز من إكمال معداتهم.

١٧- إن الحملة الثالثة على قناة السويس أيضًا قد فشلت؛ إذ خسر الأتراك في الموقعة التي جرت بينهم وبين الإنكليز في جنوب «روماني» بتاريخ ٣ أغسطس ١٩١٦م عددًا كبيرًا من القتلى و٤٠٠٠ أسيرًا واضطروا بعدئذ إلى الرحيل، فأخذ الإنكليز يتقدمون إلى أن كانت لهم الغلبة واحتلوا بئر السبع كما سنبين ذلك في

الفصل التالي.

١٨- وهناك من يزعم أن الإنكليز ما كانوا يرمون في وراء تقدمهم هذا إلى فتح فلسطين، بل كانوا يقصدون إخراج الأتراك من شبه جزيرة سينا ليتمكنوا من صد الطوارئ عن قناة السويس.

بيد أن الحوادث تطورت بشكل أنفع مما كانوا يتوقعون، فاستغلوها ولم يكتفوا بإخراج الأتراك من سينا، بل احتلوا رفح وخان يونس والسبع أيضًا، وباحتلالهم هذا هان عليهم احتلال فلسطين بأسرها.

obeikandl.com

الفصل الثامن عشر
في
الإنكليز

لما كان للوقائع الحربية التي جرت في بئر السبع أثناء الحرب العالمية الكبرى صلة وُثقى بموضوع كتابي هذا من جهة، وبالوقائع الحربية الأخرى التي تلتها وانتهت باحتلال فلسطين كلها من جهة أخرى- فقد أحببت أن أفرد لها فصلا خاصًّا أجمل فيه الوقائع إجمالا يتناسب مع حجم هذا الكتاب وغايته فأقول:

١- عندما مُني الجيش الإنكليزي بالفشل في حروب غزة الأولى ٢٦/ ٣/ ١٩١٧[١] والثانية ١٩/ ٤/ ١٩١٧[٢] أيقنت القيادة العامة أنه لا مناص من إجراء تغيير في قيادة الجبهة الفلسطينية، فاستبدلت الجنرال موري(Sir Arehebald Murray) باللورد إدموند ألنبي (Lord Edmund Allenby) (انظر إلى الصورة في الصفحة التالية) ولم يكد هذا يتسلم القيادة في ٢٨ حزيران ١٩١٧م حتى ولى وجهه شطر السبع؛ إذ أدرك أنه لن يتسنى له احتلال غزة إذا لم يفتح السبع قبلها، وعلم أن نجاح هذه الخطة يستلزم حتمًا تزييد القوى التي وضعت تحت إمرته، فاستحضر من الجنود والمدافع والمصفحات والرشاشات والطيارات ما يضمن له النصر، ولم يكتف بذلك بل قام بتمرينات عسكرية لاختبار حالة جيشه، وأنشأ قساطل[٣] إلى جنوده

---

(١) خسر الإنكليز في هذه المعركة ٦٠٠٠ جنديًّا، وكانت قواهم تربو على ٧٠٠٠ .

(٢) كانت قوى الإنكليز في هذه المعركة تُقدر بخمسين ألف مقاتل، والأتراك ثلاثون ألفًا، وخسر الإنكليز ١٥٠٠٠ رجلا.

(٣) ثخن هذه القساطل ١٢ ميلا وطولها ١٣٥ ميلا والذين اشتغلوا في مدها وفي إنشاء السكة الحديدية جنود مصريون.

لسحب المياه من النيل ومد سكة القنال الحديدية حتى أوصلها إلى دير البلح، ثم قام بإنشاء فرع لها من رفخ حتى الشلالة، ومن هناك حتى الكرم والبقار وفي الشلالة استفاد من متطوعة السيخ «الهنود» فقام بإنشاء جسر كبير سهَّل على الجيش مهمة المرور.

اللورد أدموند اللنبي
قائد الجيش الإنكليزي الذي احتل فلسطين

٢- ولم يكن الأتراك أيضًا في غفلة تجاه هذا التأهب، فقد اهتموا هم أيضًا اهتمامًا كبيرًا بتقوية خطوطهم الحربية من غزة إلى بئر السبع، ولا سيما عن أبي هريرة في الشريعة، وقد حصنوا السبع تحصينًا متينًا.

لكن اهتمامهم بها كان من الشمال والغرب، ولم يهتموا بالجهة الشرقية؛ إذ إنهم ما كانوا ليتوقعوا أي خطر عليها من تلك الجهة.

٣- أتم اللورد ألنبي تعبئة جيشه في اليوم الأخير من شهر آب ١٩١٧م وكان مؤلفًا من ثلاثة فيالق على الوجه الآتي:

(أ) الفيلق العشرون بقيادة الليفتنات جنرال شتوود Lieut. General Philip Chetwode وهذا الفيلق مؤلف من أربع فرق للمشاة هي ١٠، ٥٣، ٦٠، ٧٤ ومن أربعة ألوية للمدافع الثقيلة.

(ب) الفيلق الواحد والعشرون بقيادة الليفتنات جنرال بولفين (Liuet General E.S.Bulfin) وهذا مؤلف من ثلاث فرق للمشاة هي ٥٢، ٥٤، ٧٥ وثلاثة ألوية للمدافع الثقيلة.

(ج) فيلق خيالة الصحراء بقيادة الليفتنات جنرال شوفي (Lieut. General Sir H.G.Chanwe) وهذا مؤلف من ثلاث فرق، هي الفرقة المختلطة من الأستراليين والنيوزيلانديين، وفرقة الفرسان الأستراليين، وفرقة الفرسان المتطوعين، ولواء واحد هو لواء الهجانة الملكية.

(د) ثم تألفت قوة مشتركة من جنود الخدمة الملكية في الهند، ومن متطوعة الإفرنسيين والإيطاليين وغيرهم، ولكن هؤلاء لم يشتركوا في معركة بئر السبع.

وقد كان عدد المحاربين في هذه القوى كلها ٨٠٠٠٠ من المشاة، و١٥٠٠٠ من الفرسان، وكان تحت إمرتهم ما ينوف عن السبعة آلاف جمل لأجل نقل الماء.

وكانت «دير البلح» مقر القيادة العامة.

كان الأتراك قد عدلوا عن اتباع خطة الهجوم وركنوا إلى الدفاع فقط، ذلك وفقًا للأوامر التي تلقوها من القيادة العليا والتي كانت ترمي إلى التزام خطة الهجوم في بغداد في ذلك الحين.

غير أن الإنكليز التزموا خطة معاكسة لخطتهم هذه؛ إذ رأوا من مصلحتهم الهجوم على فلسطين والقيام بعمل حاسم فيها أثناء الخريف كي يخففوا من وطأة الحروب التي كانت حامية الوطيس في روسيا وفي أوروبا.

٤- وأما القوى التركية التي كانت مرابطة في هذه الجبهة «أي من شاطئ غزة إلى الجنوب الشرقي من تل الشريعة» فقد كانت مؤلفة كما يأتي:

(أ) الفيلق الثاني والعشرون في الجناح الأيمن بقيادة رأفت بك، وهذا مؤلف من ثلاث فرق هي ٥٣ «في خط الدفاع عن غزة» و٣ «في المقر العام بجباليا» و٧ «احتياط في دير سنيد».

(ب) الفيلق العشرون بقيادة علي فؤاد بك، مقره هوج، وهو مؤلف من أربع فرق هي ٥٤، ٢٦، ١٦، ٢٤ «احتياط في الجمامة».

(ج) جيش الصاعقة، وهو مؤلف من الفرقة التاسعة عشر المرابطة في عراق المنشية لصد الطوارئ فقط.

(د) وهنالك كتيبة واحدة لأجل التموين كانت مرابطة في الخليل.

وقد كان عدد المحاربين في هذه القوى كلها ٤٠٠٠٠؛ الشطر الأكبر منهم ٣٣٠٠٠ من المشاة، وكان هنالك ٢٦٠ مدفعا.

وكانت «حليقات» الواقعة في شمال قرية هوج مقرًّا عامًّا لقيادة الجيش الثامن وقائده جمال باشا الصغير (انظر إلى الصورة) ذلك كان موقف الفريقين المتحاربين في الجبهة كلها قبل الشروع في حرب السبع.

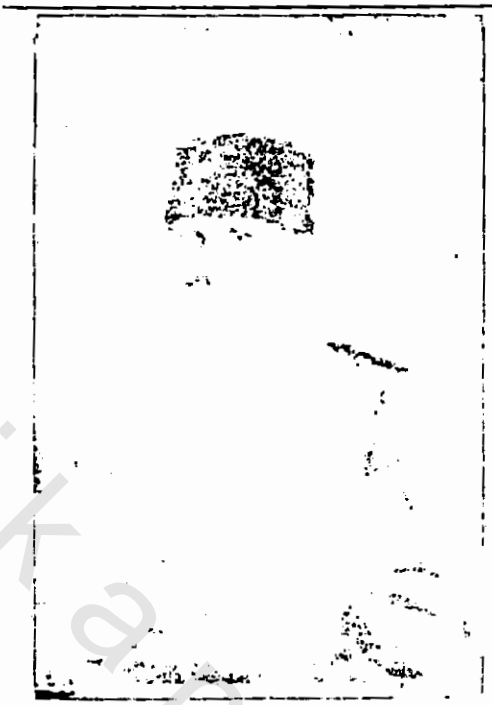

فلنأتِ الآن على ذكر القوى التي اشتركت في الحروب التي قامت حولها بالفعل.

٥- أما الإنكليز فقد عهدوا بهذه المهمة إلى الفيلق العشرين وإلى قسم من خيالة الصحراء المتقدم ذكرهم وإليك البيان:

(أ) الفرقة ٦٠ بقيادة الماجور جنرال شي Maj. General Shea في جهات أبي غليون، وبئر الصنى، ورشاد بك «أي الخبيرة».

(ب) الفرقة ٧٤ بقيادة الماجور جنرال جيردوود Maj. General Girdwood في الخسف على الطريق الموصلة بين تل الفارعة وبئر السبع.

(ج) الفرقة ٥٣ بقيادة الماجور جنرال موت Maj. Gen. Mott في الخنادق المحفورة على طول وادي حنفيش.

(د) فرقة الفرسان الأستراليين في الخلصة.

(هـ) فرقة الفرسان المشتركة من الأستراليين والنيوزلانديين في عصلوج. وكان مع هذه الفرقة اللفتنانت جنرال شوفل قائد فيلق خيالة الصحراء المتقدم ذكره، وهذه القوى كلها وضعت تحت إمرة قائد الفيلق العشرين الجنرال شتوود الذي عهد إليه بمهمة ضبط بئر السبع[١].

٦- وأما الأتراك فقد كانت قواهم في بئر السبع لا تزيد عن فيلق واحد هو الفيلق الثالث، وهذا كان مؤلفا من فرقة المشاة ٢٧، وفرقة الفرسان الثالثة، والكتيبة الثانية من الفرقة ٢٤، والكتيبة الثامنة والأربعون من الفرقة ١٦، وكتيبتان من العرب، وكان عدد المحاربين في هذه القوى ٥٠٠٠ بين مشاة وفرسان معهم ستون رشاشًا وثمانية وعشرون مدفعًا، وقائد هذا الفيلق عصمت بك[٢].

إلا أن هذا كان يتلقى أوامره من قيادة الجيش الثامن في حليقات ورئيس أركان الحرب فيون كرس باشا الألماني (Kress Von Kressendtein) .

٧- شرع الإنكليز في حركاتهم الحربية المتجهة نحو السبع في ٢١ تشرين الأول ١٩١٧م وبعد أن قامت بينهم وبين الأتراك معارك شديدة في مواضع مختلفة تمكنوا من الوصول إلى البقار في ٣٠/ ١٠/ ١٩١٧م، وهناك تظاهروا بالتأهب للهجوم على الخط الأساسي من الجبهة الغربية.

وفيما كان مشاتهم يتقدمون في تلك الجبهة كانت طياراتهم تحلق في السماء وكانت بوارجهم الحربية تصب نيرانها على غزة من البحر، وما كان أحد يرتاب في أنهم كانوا يبتغون من حركاتهم هذه احتلال السبع من الجهة الغربية، فركز الأتراك

---

(١) وعلى قول: إن هذا هو الذي أشار على اللورد اللنبي بفتح السبع قبل غزة.

(٢) أحد أقطاب الكماليين ورئيس الوزارة في الجمهورية التركية الآن.

جميع قواهم في هذه الجهة وحصنوها تحصينًا متينًا بالخنادق والجنود (انظر إلى الصورة) والأسلاك الشائكة وكل ما في أيديهم من وسائل حربية.

في الغربية الأتراك يسعون لصد الإنكليز عن بئر السبع

وبينما كانت نيران الحرب مشتعلة بين الفريقين وكان القتال سجالا بينهما في الجهة الغربية وفي الجهة الجنوبية الغربية- كان الإنكليز يقومون بحركة تطويق هائلة من الجنوب إلى الشرق.

والغريب أنهم تمكنوا من القيام بحركة التطويق هذه بسرعة لم تكن ببال أحد، بل ظن الأتراك أنهم «أي الإنكليز» يتظاهرون بالهجوم على بئر السبع خصيصا ليخفوا غاياتهم الحقيقية المتجهة نحو غزة.

وبينما كانوا مترددين في تفسير هذه الطلاسم كانت فرقة الفرسان الأستراليين قد حطت رحالها في الخلصة ٣٠/ ١٠/ ١٩١٧ وشرعت تعمر بئر الماء فيها، وكذلك فعلت فرقة الفرسان المختلطة من الأستراليين والنيوزلانديين التي هبطت عصلوج في اليوم نفسه.

ولقد سارت هذه القوى في طرق مختلفة من عصلوج إلى بئر الحمام، ومن بئر الحمام إلى عرعرة وإلى صويوين، ومن الخلصة إلى عصلوج فصويوين أيضًا، ومن هناك سارت كلها إلى رأس غنام ولم يبقَ منها في صويوين سوى كتيبة أبقيت هناك لصد الطوارئ.

٨- في هذه اللحظة شعر الأتراك بالخطر، فوضع عصمت بك فورًا فوجًا واحدًا من الفرسان ورهطًا من الرشاشات على «تل السبع» ثم وضع فوجًا آخر من الفرسان في الجهة الجنوبية الشرقية للبلد (انظر إلى الصورة) وأصدر أمره إلى أسعد بك قائد فرقة الفرسان الثالثة كي يرابط في الهضاب المرتفعة في الجهة الشمالية الشرقية؛ وذلك لأجل خفارة طريق الخليل من جهة، والحيلولة دون حصار السبع من الشمال من جهة أخرى.

كتائب الفرسان التركية تتأهب للنضال الأخير

عندما فهم عصمت بك من تقرير أسعد بك (انظر إلى الصورة) ومن تقارير الطيارين الألمان أن القوة الإنكليزية الزاحفة من الشرق والجنوب كبيرة- أخبر بدوره قائد الجيش، وطلب منه النجدة، لكن فون كرس باشا لم يصدق الخبر، بل

كان يعتقد أن قوة الإنكليز لا يمكن بحال من الأحوال أن تتعدى الكتيبتين من الفرسان.

ولما دنت ساعة الخطر وأخذت التقارير تنصب على رأسه من كل جهة أبرق يقول: (سوف نحتفظ بالسبع والحرب تدوم).

وعندما اتصل بعصمت بك نبأ الخسارة التي تكبدها اللواء ٦٨ -إذ استشهد منه طابوران- أرسل الفوج الثالث من اللواء الثاني إلى الجهة الجنوبية الغربية. وبذلك يكون قد استعمل جميع القوى الاحتياطية التي كانت تحت تصرفه.

ولم يبق بين مدينة السبع وبين الفرقتين الإنكليزيتين ٦٠، ٧٤ سوى فوج الاحتياط من اللواء ٦٧ وفوج آخر من اللواء الثاني.

٩- ولكن هذه التدابير لم تُجدِ الأتراك نفعًا، إذ ما دقت الساعة الثالثة حتى سقط «تل السبع» بيد الإنكليز رغم استماتتهم في سبيل الدفاع عنه، وفي الساعة الرابعة أصدر قائد الفيلق أمره إلى الجنود بالانسحاب إلى شمال المدينة، وإلى المهندسين المرافقين للسرية ٢٧ بأن يخربوا آبار المياه التي فيها، ولكن اللواء الرابع من فرقة

الفرسان الأستراليين تمكن من احتلالها قبل أن يقوم المهندسون بالمهمة الملقاة على عاتقهم، حتى إن عصمت بك نفسه نجا من الوقوع في شرك الأسر بأعجوبة.

وهكذا احتل الجيش الإنكليزي بئر السبع في الساعة السادسة بعد الظهر ٣١ تشرين أول ١٩١٧م بعد أن قتل من الأتراك ٥٠٠ جنديا وأسر ألفين ساقهم فورًا إلى «طوال الحباري» حيث كان المقر العام للفيلق العشرين.

١٠- كان في خويلفة فرقة من الأتراك وفي شمالها فرقتان، وقد عهد إلى هذه الفرق حماية الطريق المؤدية إلى غزة، ولذلك اضطر الإنكليز إلى مهاجمة خويلفة في صبح اليوم التالي، وقد جرت هناك حروب أشد من الحرب التي جرت حول السبع، كان القصد منها منع المدد عن غزة، ولقد أضاع فيها الإنكليز عددًا كبيرًا من جنودهم.

ولم يمضِ على احتلال السبع أكثر من أسبوع حتى سقط خط الدفاع في الشريعة ٦/ ١١/ ١٩١٧م، ثم سقطت غزة ٧/ ١١/ ١٩١٧م على يد الجنرال بولفين من غير حرب في هذه المرة؛ إذ كان الأتراك بقيادة قائد الفيلق الثاني والعشرين رأفت بك قد أخلوها وانسحبوا -بإشارة فون كرس باشا وموافقة الجنرال فالكنهايم- إلى خط الدفاع الثاني الممتد على طول «وادي الحسى».

وبهذه الحروب التي انتهت بانهزام الأتراك دخلت ديار السبع في عهد جديد هو «عهد الاحتلال الإنكليزي».

١١- وفي ذلك اليوم تولى الكابتن رجلاس (Capt. B.B. Ragless) إدارة بئر السبع، فكان أول حاكم إنكليزي عسكري تولى الإدارة في هذا القضاء.

ثم تولاها الماجور شاتوين، فالمستر ناثان، فالمستر كني ليفيك، فالمستر قروزبي، فالمستر كارترايت، فالمستر بيلي، فالمستر شامبيون، فعبد الرزاق أفندي قليبو، فكاتب

هذه السطور.

ولم يتعرض الإنكليز للبدو في عاداتهم، بل تركوهم يحلون مشاكلهم ويفصلون قضاياهم وفق تقاليدهم كما فصلنا ذلك في كتابنا «القضاء بين البدو».

obeikandl.com